# محاضرات في ...

# تاريخ العرب الحديث والمُعاصر

## الفرقة الرابعة – أساسي

## دراسات إجتماعية

أستاذ المقرر

أ. م. د. محمد سيد إسماعيل

العام الجامعي

٢٠٢٢/ ٢٠٢٣م

# تاريخ العرب الحديث

## بيـانـات أساسية

**الكلية: التربية** **الفرقة: الرابعة**

**التخصص: أساسي – دراسات** **عدد الصفحات: ١٥٧**

**القسم التابع له المقرر : قسم التاريخ– كلية الآداب.**

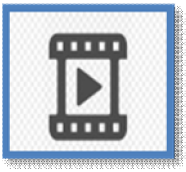 **فيديو للمشاهدة.**

نص للقراءة والدراسة.

رابط

خارجي أسئلة للتفكير والتقييم الذاتي.

**أنشطة ومهام.**

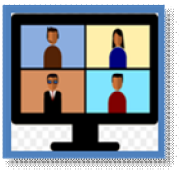 **تواصل عبر مؤتمر الفيديو.**

## مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله وبعد، يسرنا أن نقدم للقارئ في التاريخ هذا الكتاب عن "تاريخ العرب الحديث".

ا متد التاريخ العربي الحديث والمعاصر لعدة قرون تبدأ من مطلع القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين أو قرب نهايته، وهي فترة زاهرة بالعديد من الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، تخللتها فترات من الضعف والتخلف والجمود والعزلة وأخرى اتسمت بالقوة والتقدم والنهضة والاحتكاك بالعالم الخارجي. ولا تتفق آراء المؤرخين حول بداية التاريخ العربي الحديث أو نهايته فمنهم من يرى أنه يبدأ مع توجه العثمانيين نحو بلاد المشرق العربي منذ منتصف القرن السادس عشر ثم امتداد نفوذهم إلى معظم البلاد العربية، ومنهم من يرى أنه يبدأ مع نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وكذلك الحال بالنسبة لنهاية التاريخ العربي الحديث فمنهم من يرى أنه ينتهي عند بداية القرن العشرين، على حيث يرى آخرون أن نهايته مع الحرب العالمية الأولى.

وتختلف آراء المؤرخين أيضا حول بداية التاريخ العربي المعاصر فمنهم من يرى أنه يبدأ مع بداية القرن العشرين، ومنهم من يرى أنه يبدأ مع الحرب العالمية الأولى باعتبارها نقطة تحول في تاريخ المنطقة العربية. على حين

يرى البعض الآخر أن الحرب العالمية الثانية هي بداية التاريخ العربي المعاصر. والرأي عندنا أن تاريخ العرب الحديث يبدأ مع دخول العثمانيين إلى المنطقة العربية وينتهي عند بداية الحرب العالمية الأولى ليبدأ التاريخ العربي المعاصر في أعقاب هذه الحرب العظمى.

وتزخر هذه الفترة بالكثير من الأحداث الجسام المختلفة والمتنوعة، فقد كان ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن الدفاع عن الدول العربية التي تحت حمايتها في مواجهة التنافس الاستعماري بين القوى الاستعمارية الغربية، بالإضافة إلى تطلع هذه القوة للسيطرة على المنطقة العربية لأهميتها الاستراتيجية والعسكرية دافعا للسيطرة عليها لتحقيق أطماعها فيها باعتبارها نقطة وثوب إلى أهداف أخرى أو باعتبارها هدفا في حد ذاتها. وازدادت أهمية المنطقة بعد اكتشاف البترول مما زاد من حدة التنافس والوجود الاستعماري بها. وقد فرضت بعض الدول الاستعمارية سيطرتها على معظم الدول العربية بأشكال مختلفة وبدرجات متفاوتة الأمر الذي خلف آثارا بعيدة المدى على هذه الدول في مجالات عديدة. وقد قاومت هذه الدول الاستعمار فكانت حركات التحرر الوطني والمقاومة في دول المشرق والمغرب العربي سعيا للتحرر والاستقلال.

وقد حرصنا في هذه الكتاب على تتبع الخطوط الأساسية التي تبرز تاريخ الدول العربية في المشرق والمغرب العربي ودول شبه الجزيرة العربية ودول

الخليج العربي في مراحله المختلفة طوال هذه الفترة التي شهدت من الأحداث الهامة ما يمكن أن يفرد لها دراسات مستقلة.

يشكل الوطن العربي ( المشرق العربي والمغرب العربي ) موقعا متميزا من العالم ، بل وجزءا أساسيا منه ، لما يتسم به من خصائص ومميزات فريدة من نوعها ، فمن الناحية الحضارية امتاز بكونه مركزا لأقدم حضارات العالم وأكثرها أصالة ، أما من الناحية الجغرافية ، وأوربا ، وأصبح نقطة التواصل بين هذه القارات عبر الوطن العربي سواء عن الطرق البرية أم الطرق البحرية ، فسهّل واختصر طرق المواصلات كثيراً ، أما من الناحية الاقتصادية فامتاز بكثرة خيراته وموارده الاقتصادية ، فهي كثيرة ومتنوعة عززها اكتشاف النفط في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، الأمر الذي أضفى عليه عاملا سياسيا ، تمثل في زيادة رغبة الدول الكبرى في السيطرة عليه ، تلك السيطرة التي امتدت منذ وقت مبكر من التاريخ الحديث ، تمثلت بغزوات البرتغاليين والأسبان تبعهم الانكليز والفرنسيين وغيرهم ، بل إنه أصبحمحطّ التنافس الإقليمي عليه ، والمتمثل بالتنافس العثماني – الفارسي . حتى أفضى الأمر إلى السيطرة العثمانية المريرة على البلاد العربية قرابة الأربعة قرون تراوحت بين السيطرة المباشرة وغير المباشرة عليه ، نظرا لرفض العرب تلك السيطرة ومقاومتها ولاسيما في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

لقد كان لسكان الوطن العربي الدور الريادي في تقدم الوطن العربي في معظم المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية وعبر حركات الإصلاح وزعمائها ، على الرغم من إنه عانى من السيطرة العثمانية والسيطرة الأجنبية وكان له الدور الكبير في التصدي لقوى الاحتلال الاستعمارية التي سيطرت على قسم منه للعديد من السنوات ، تمثل في العديد من الثورات العربية ضد تلك القوى لتعطي تلك المقاومة دافعا قويا للأجيال العربية اللاحقة في حصولها على الاستقلال في التاريخ المعاصر . وللمقررين علاقة وثيقة مع بعض المفردات الدراسية التي يدرسها الطالب في المراحل الدراسية الأخرى لارتباطهما الأحداث التاريخية بعضها بالبعض الآخر ، وبحكم التأثير الواضح فيها ، كما أن المنهجين متكاملان ويغطيان الأحداث المهمة في تاريخ الوطن العربي الحديث ( المشرق العربي والمغرب العربي ) حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى .

وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحب وسلم.

أ.م. د. محمد سيد إسماعيل
أسيوط – ٢٠٢٢م

## محتويات الكتاب.

مقدمة.

الفصل الأول: التاريخ (ماهيته، أهميته، تفسيره).....

الفصل الثاني: العثمانيون (أصلهم، التوسع، العرب).....

الفصل الثالث: التوسع العثماني في المشرق (شمال أفريقيا).....

الفصل الرابع: الدولة العثماني والقوى المحلية في المشرق.....

الفصل الخامس: الدولة العثمانية ومحمد على.....

الفصل الساس: الاصلاحات العثمانية العسكرية بالمشرق.....

الفصل السابع بريطانيا والعرب فترة الحرب العالمية الأولى ؛ مصر نموذجاً

الفصل الثامن: الثورة العربية الكبرى .....

الفصل التاسع: العثمانيون والعرب! احتلال أم فتح؟؟؟.....

الفصل العاشر: قضايا عربية مهمة.....

# الفصل الأول

## ( التاريخ؛ ماهيته وأهميته، تفسيره)

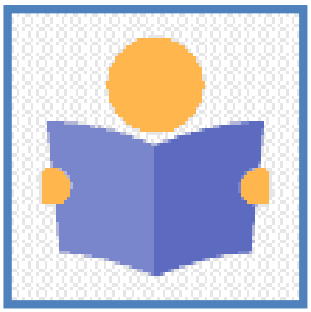

وقبل أن نبدأ في مقرر تاريخ مصرنا الغالية يجب الإجابة على بعض التسائلات المطروحة؟

ما معنى مصطلح التاريخ؟

ما الفرق بين التاريخ والتأريخ؟

هل التاريخ علم أم فن أم أدب؟

- متى يبدأ التاريخ الحديث ومتى ينتهي؟
- متى تبدأ الفترة المعاصر؟
- هل للجغرافيا أهمية في قراءة التاريخ؟

علم التاريخ هو إعادة صياغة الوقائع حسب ما توفر من مصادر ومعطيات. أو بأبسط معانيه هو (أحداث الماضي الذي نملك عليه دليلاً .). أما عملية التأريخ هي عملية تسجيل وتوثيق تلك الأحداث.

اختلف العلماء حول موضوع : هل التاريخ علم أم لا ؟ فذكر البعض أن التاريخ ليس علماً لأن الوقائع التاريخية لا تخضع لما يخضع له أى علم من معاينة ومشاهدة أو اختبار أو تجربة ، وبذلك لا يمكن استخلاص قوانين محددة ثابتة كما هو الحال فى علم الكيمياء أو الطبيعة

على سبيل المثال ، وفى رأى هذا الفريق أن هناك عناصر فى التاريخ لا تتوفر فى العلوم الأخرى وهو عنصر المصادفة، وكذلك الشخصية الإنسانية التى تُسير إلى حد ما حوادث التاريخ.

أما الفريق الآخر فيرى أنه رغم عدم استطاعتنا استخلاص قوانين علمية ثابتة بالنسبة لعلم التاريخ كما هو فى علوم الكيمياء والطبيعة فإن ذلك لا يجرده من صفة العلم وأنه يكفى أن نعطى صفة العلم لأى موضوع يقوم الباحث بالمضى فى دراسته مع سعيه لإبراز الحقيقة وأن يكون حكمه دائماً ناقداً مع البعد عن الأهواء الشخصية ويرى هذا الفريق أن علم التاريخ هو علم نقد وتحقيق وأقرب العلوم إليه هو علم الجيولوجيا.

أما رجال الأدب فيرون أن التاريخ فن من الفنون وأن العلم لا يعطى إلا مخلفات الماضى ولذلك لا بد من تغليفها بالخيال ولا يقدر على ذلك إلا الكاتب الماهر، فمثلاً لا يستطيع العلم الطبيعى أن يفسر لنا حريق موسكو فى عهد نابليون بونابرت فى سنة ١٨١٢ إلا على أساس قوانين الاشتعال ، ولا بد من تدخل المؤرخ لكى يشرح الأسباب والظروف السياسية والعسكرية التى أدت إلى الحريق، علماً بأن المؤرخ أكثر عطاءً فى ذلك خاصة وإن لم يوجد شئ من مخلفات هذا الحريق يقوم بدراسته العالم الطبيعى بينما المؤرخ يعتمد على الوثائق والمخطوطات المودعة بدور الإرشيف المختلفة فى أنحاء العالم.

دار جدل طويل حول الكتابة التاريخية ومكانها بين العلم والفن والأدب ، واختلف فيه المفكرون فمنهم من ذهب إلى أن التاريخ علم بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ومن هؤلاء الدكتور بيورى الذى ذكر فى محاضرته التى ألقاها فى الثالث من يناير ١٩٠٣ " أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل " ، واللورد أكتون Acton الذى عرف العلم بأنه " اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعهم وحدة عامة على هيئة مبدأ أو قانون " ، وهكسلى الذى قال " أفهم أن المقصود من كلمة العلم أنها نوع من أنواع المعرفة التى تقوم على الدليل والتدليل ، وبمعنى آخر فإن العلم هو " كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط " والدكتور ألكسندر هل الذى قال : " أن كل معرفة معقولة فهى علم ".

أما عن العلية أو السببية أو التعليل في التاريخ؛ فهو ذكر سبب الواقعة أو الموضوع المحدد. أما التفسير فهو امتلاك رؤية لفهم مسار حركة التاريخ، والقوانين التي تُسيِّره، واستنباط الحقائق الكلية التي تحدد مساره. عملية تفسير التاريخ هي جزء من منهج البحث، وتلي عملية جمع المعلومات من المصادر ونقدها. وعليه وهي عملية اجتهادية، يتفق الباحثون ويختلفون بشأن مخرجاتها. حيث أنه لا توجد حقيقة تاريخية مطلقة؛ كونها حقيقة نسبية، أو لا أحد يستطيع التأكيد على أن (الحقيقة التاريخية) حافظت على نقائها.

يُرجعُ البعض أصل فلسفة التاريخ إلى رغبة البشر في أن يجدوا أجوبة لسؤالين جوهريين هما: لماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ومن هنا بدأ الإنسان يجتهد من أجل معرفة القوانين المسيرة لهذه الحوادث والتواريخ، ومنذ منتصف القرن ١٩ حدثت طفرة في الدراسات التاريخية في العصر الحديث، نتيجة لحالة الوعي الأوروبي، وكرد فعل طبيعي لسيادة النظرة المسيحية في تفسير التاريخ ووقائعه، حيث اُعتبر أن التاريخ هو تحقق المشيئة الإلهية، وكما الحال في الإسلام. كانت دوافع تطور هذه المدارس التاريخية هي عملية العودة للماضي الإغريقي والروماني والشك فيه، والتطاحن الحربي بين الكاثوليك والبروتستانت، ورحلات الاستطلاع والاستكشاف للعالم الجديد، والصراع السياسي والاجتماعي بين بلدان أوروبا، ثم الأفكار التنويرية بداية من جوفينو فيكو، مروراً بمونتسيكيو وروسّو وفولتير، كما أدى اكتشاف قوانين طبيعية يسير وفقها الكون إلى التفكير في إيجاد تفسيرات ونظريات يستطيع من خلالها تفسير الماضي واستشراف المستقبل. وبناءً على تباين التفسيرات للتاريخ ظهرت لنا عدة مدارس حديثة لتفسير التاريخ.

إن حركة التاريخ ليست مضبوطة على إيقاع محدد. فأحياناً، وفي بعض المراحل تكون على شكل خط مستقيم. وأحياناً أخرى على شكل دوائر حلزونية. وأحياناً تكون ذات إيقاع سريع. تعاني من هبوط وتراجعات أحياناً. وعليه فقد تتفاعل مجموعة من العوامل والاتجاهات في صياغة أحداث

التاريخ. ويكون للصدفة مكانها. وللعناصر المادية آثارها. وللفكر دور. وللتحدي دور. وهو ما يعني أن التاريخ يأخذ شكل نسيج هائل التعقيد من العوامل التي تلعب مع بعضها، وضمن قوانين بالغة الصرامة، ولكنها في الوقت نفسه بالغة الحرية لتصنع التاريخ البشري. ليس بوسعنا أن نضع قانوناً واحداً لحركة التاريخ. وما ظهر من تعميمات ورؤى تتناول عدد من القرون، أو منطقة من الأرض، أو لوناً من ألوان الحضارة. لكن هل معنى هذا أن القانون غير موجود في التاريخ؟ كلا، التاريخ يخضع لقانون، لكن المشكلة هي مقدرتنا على كشف هذه القوانين. وعلى أية حال فإن مسألة عدم وجود القانون لا يُلغي قيمة التعميمات والتفسيرات التاريخية التي اتخذت شكل اتجاهات ونظريات عامة في التفسير.

## أهم اتجاهات ومدارس تفسير التاريخ

١- التفسير الديني اللاهوتي.
٢- التفسير التقدمي للحضارة عند فلاسفة التنوير.
٣- الجمع بين التقدم والعناية الإلهية.
٤- التفسير الوضعي للتاريخ.
٥- التفسير المثالي للتاريخ.
٦- التفسير الاقتصادي والمادي للتاريخ.
٧- التفسير البيولوجي للتاريخ.
٨- نظرية التحدي والاستجابة (توينبي).

٩- التفسير البطولي للتاريخ.

١٠- التفسير الإسلامي للتاريخ.

١١- التفسير الجغرافي للتاريخ.

## الفصل الثاني

## العثمانيون ( أصلهم، التوسع ، العرب)

# أصل العثمانيين[1]

ما زالت قضية نشأة الدولة العثمانية تثِّير جدلا ونقاشا بين المؤرخين، وسبب ذلك يرجع إلى عاملين أساسيين يتعلق أولهما بفقدان المصادر والمواد الأولية التي تعود لتلك الفترة ، وثانيهما كثرة ما علق بهذا التاريخ من أساطير وخرافات ، لذلك فقد تعددت الروايات في هذا الشأن وأبرزها هي الرواية التقليدية التي تتلخص بان جد العثمانيين الأعلى وهو سليمان شاه ينتمي إلى عشيرة تركمانية اسمها قايي ، وكان يحكم منطقة ماهان شمال إيران في أواخر القرن الثاني عشر ، وقد فر أمام المغولي في مطلع القرن الثالث عشر ، متجها مع جماعة من أتباعه نحو الأناضول ، وتشير هذه الرواية إلى أن سليمان شاه غرق أثناء عبوره نهر الفرات عند قلعة جعبر فانقسمت إلى قسمين فضل أحدهما ،

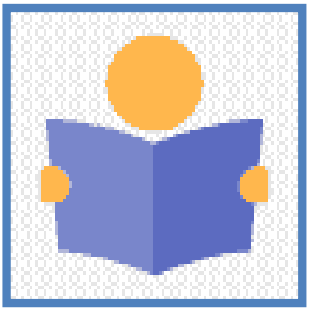

[1] د. فؤاد طارق كاظم العميدي: تاريخ الدولة العثمانية، التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل ، العراق.

وكان بقيادة كندبار أحد أبنائه ، العودة من حيث اتى ، أما القسم الآخر فكان بقيادة ارطغرل الذي قرر الاستمرار في الاتجاه نحو الاناضول ، وبهذا يعد ارطغرل مؤسسة الأسرة العثمانية في الأناضول ، ومما جاء في الرواية أن ارطغرل شاهد في طريقه جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى العشائر البدوية آنذاك ، ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق من انكساره وخذلانه إن لم يمد إليه يد المساعدة دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو و فرسانه مسرعين لنجدة أضعف الجيشين وهاجم الجيش الغالب ، وكان فرقة مغولية من جيش الخان اوكتاي بن جينكيز خان حتى هزمه ن ولم يكن الجانب الضعيف سوى جيش سلطان قونية السلجوقي علاء الدين الأول ( ١٢١٩ – ١٢٣٥ م ) فكافأه علاء الدين على مساعدته له فإقطاعه بقعة من دولته في غرب الاناضول وهي سهول سكود والمنحدرات الشرقية من جبال ظومانيج على الحدود البيزنطية ، كما منحه لقب ( أوج بكي ) أي حارس الحدود جريا على التقاليد التي كانت سائدة في دولة الاتراك السلاجقة .

وتقول الرواية أن عثمان الابن الأكبر لارطغرل تزوج من مال خاتون وهي ابنة رجل صالح متصوف اسمه ادة بالي ، كان يسكن في قرية مجاورة لمدينة اسكي شهر حين قص عليه حلما رآه وفيه أن القمر يصعد من صدر الشيخ وبعد أن يصبح بدرا ينزل في صدر عثمان ، ثم تخرج من صلبه شجرة تغطي الكون بظلها ، وتصبح كل الجبال تحتها ويخرج النيل ودجلة

والفرات والدانوب من جذعها وتتوجه أوراق هذه الشجرة كالسيوف نحو مدينة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية آنذاك. ولما توفي ارطغرل سنة ١٢٨٨م أصبح عثمان أكبر أولاده مكانه ولم يلبث هذا أن حصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة قرية حصار ، سنة ١٢٨٩ فمنحه السلطان علاء الدين لقب ( بك ) وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي استولى عليها وأجاز له ضرب العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة ، وفي سنة ١٣٠٠ توفي علاء الدين فاستأثر عثمان بجميع الأراضي المقطعة له ولقب نفسه باديشاه آل عثمان ، وجعل مقره مدينة يكي شهر ، وأخذ في تحصينها ، ثم احتل نيقيا ، ولكنه فشل في احتلال نيقوميديا فعاد إلى عاصمته الأولى ليعمل في تنظيم سلطنته .

لقد وردت الراوية التقليدية تلك في الحوليات العثمانية الرسمية وتناقلتها مصادر عديدة ولكن ببعض الاختلافات القليلة ومن ذلك أن لعثمان اثنين وخمسين جدا ينتهون بنوح ، ومنهم أوغوزخان الذي عرف قومه بالغز ، وهم قبائل تركية اشتهرت ببأسها في آسيا الغربية في القرن العاشر ، وردد كتاب عرب الرواية الرسمية وأضافوا إليها بعامل الزمن كثيرا من الإضافات التي تعكس ازدياد قوة العثمانيين ، وكمثال على ذلك إلى رواية تطرق فيها علي بن حسن الشهالي الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع عشر إلى خبر يتعلق بانتساب العثمانيين إلى عرب الحجاز .

ويتضح من الرواية العربية أنها تهمل ذكر الغز سبب وثنيتهم ولا يعني هذا النيل من العثمانيين وإنما إضافة أمجاد مهمة لهم حين تنسب إلى الأصل العربي ، ومهما يكن من أمر فالنظرية الرسمية وانعكاساتها تدل على أنها محض أساطير وضعت وشاعت في وقت متأخر من قيام الدولة العثمانية وهي تعود غالبا إلى القرن الخامس عشر حين شعر الكتاب الأتراك بأن دولة عظيمة مثل الدولة العثمانية ، وخاصة بعد استيلائها على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، تحتاج إلى تاريخ عظيم يتفق والحاضر المجيد الذي وصلت إليه .

لقد توصل الباحثون في السنوات القليلة الماضية إلى حقيقة تاريخية جديدة وهي ان الجد الأعلى للعثمانيين لم يدخل الأناضول في القرن الثالث عشر ، وإنما في القرن الحادي عشر مع جموع من التركمان الذين انتشروا في هذه المنطقة في اعقاب معركة ملاذ كرد صيف ١٠٧١ بين السلطان السلجوقي الب ارسلان والامبراطور البيزنطي رومان الرابع ديوجين التي انحسمت بهزيمة البيزنطيين وأسر الامبراطور ، واستنادا لهذه المعلومات ، فالعثمانيون الأوائل لم يكونوا أكثر من قبائل بدوية ارتبطت بالسلاجقة الأتراك بشكل أو بآخر ، لذلك وبعد أن بنى العثمانيون دولتهم نشروا الفكرة القائلة بأن جدودهم الأوائل دخلوا الأناضول قادة عسكريين في خدمة السلاجقة وهذا بدون شك يعزز طموحاتهم إلى السلطة وانفرادهم بها خاصة بعد انقراض دولة السلاجقة الروم العظام .

لقد كان موضوع نشأة الدولة العثمانية والروايات المتعلقة به مثار نقد وتمحيص عدد من المؤرخين منهم المؤرخ الانكليزي كيبونز والمؤرخ التركي محمد فؤاد كوبرلي ، والمؤرخ الانكليزي بول ويتك والذين وضعوا نظريات حديثة تجاوزت الرواية التقليدية ذات الأسس الواهية وتبنوا أفكارا جديدة تتوافق مع المنطق العلمي والسياق التاريخية أو ضمن رؤية يقررها المنهج لذي يعتمده المؤرخ في دراسة التاريخ :

**نظرية كيبونز**

إن المؤرخ الانكليزي كيبونز من أوائل الذين تصدروا لموضوع نشأة الدولة العثمانية ، وقد اورد آراءه وأفكاره في هذا الشأن ضمن كتابه الذي صدر سنة ١٩١٦ ، وتتلخص نظريته بما يلي:

١- كان ارطغرل ابو عثمان رئيس عشيرة صغيرة اسمها قايي وفدت على الاناضول في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين الأول فرارا من الغزو والمغولي لخوارزم .

٢- استقرت هذه العشيرة في سكود شمال غرب الأناضول وهي مقاطعة تابعة لدولة سلاجقة الروم ، وتولى عثمان رئاسة هذه العشيرة بعد وفاة والده ارطغرل .

٣- كان عثمان وعشيرته أتراكا كفارا يزاولون الرعي ، فلما عاشوا في بيئة إسلامية دخلوا الاسلام شأنهم في ذلك شأن أبناء جلدتهم من السلاجقة . وقد اثار فيهم الدين الجديد رغبة في إدخال الناس فيه

فأرغموا جيرانهم الإغريق الذين كانوا يعيشون معهم في وفاق على الدخول في حوزة الإسلام كذلك .

٤- لم يكن تحت قيادة عثمان قبل دخول الإسلام غير أربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة بسيطة ، لكن عدهم سرعان ما تضاعف بين سنتي ١٢٩٠ و ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى صاقبت حدود البيزنطيين ، وأدى ذلك إلى ظهور جنس جديد انتسب إلى رئيسه عثمان ، ذلك هو الجنس العثماني ، ولم يكن هذا الجنس تركيا خالصا منذ بداية أمره ولكنه كان جنا مختلطا ناشئا من ذوبان العناصر الأصلية وقوامه الأتراك الوثنيون والإغريق المسيحيين .

٥- وزاد عدد العثمانيين بنسبة كبيرة في وقت قصير ، ومن الخطأ تعليل ذلك بالإمدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق ، لأن أراضي العثمانيين كانت تقع غرب الأناضول ، وكان لا بد للكتل البشرية لكي تبلغ ذلك المكان من الالتحاق بخدمة حكام آخرين في شرق الأناضول أولا ، وأن تأخذ منهم أراضي ، ومن هنا لا يمكن تعليل الزيادة الا بذوبان العنصر المحلي المكون من الإغريق .

## نظرية كوبرلي

بالرغم من أن آراء كيبونز في موضوع نشأة الدولة العثمانية تعد ذات قيمة كبيرة بين المؤرخين المهتمين بالدراسات العثمانية ، وذلك لما عرف عن هذا المؤرخ من مكانة متميزة في حقل اختصاصه ، وللجهد الواضح في

كتابه ، إلا ان نظريته واجهت بعد سنوات قليلة من نشها نقدا شديدا من البروفسور محمد فؤاد كوبرلي ، وهو مؤرخ تركي معاصر ألقى في سنة ١٩٣٤ ثلاث محاضرات في مركز الدراسات التركية في جامعة السوربون بفرنسا ، دارت حول قيام الدولة العثمانية ، وأشار كوبرلي في تلك المحاضران إلى أن نظرية كيبونز تبدو له واهية من حيث أساسها العلمي وخاصة في محاولة اعتماد العامل الديني في تفسير نشأة الدولة العثمانية .

## نظرية ويتك

في البدء نقول ان بول ويتك يعد رائدا في الدراسات العثمانية من خلال سلسلة محاضرات ألقاها في جامعة لندن سنة ١٩٣٧ ونشرتها الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٣٨ بعنوان " قيام الدولة العثمانية " وقد حاول : نقد الرواية التقليدية الرسمية والاتيان بنظرية جديدة تعد الأول من أحدث وأوثق النظريات المعتمدة في هذا المجال ، ومع أنه أفاد كثيرا من نظرية كوبرلي إلا إن ذلك لم يمنعه من الإشارة إلى ان كوبرلي صدق الاسطورة التي تقول بانتماء العثمانيين إلى قايي ، وقال ويتك ان الإمارة العثمانية لم يكن سوى واحدة من بضعة إمارات إسلامية تشكلت في القرن الثالث عشر على حدود الدولة البيزنطية ، وعاشت على غزو الأرضي البيزنطية والسعي الحثيث لنشر الإسلام ، أما سكان هذه الإمارات فكانوا خليطاً من عناصر مختلفة يجمعهم الدين الإسلامي والحماس في محاربة البيزنطيين .

ولقد ورد ذكر العثمانيين لأول مرة بهذا المعنى في قصيدة الشاعر أحمدي نظمها بالفارسي حوالي سنة ١٤٠٠ ، أما سليمان شاه ، الذي تقول الرواية الرسمية أنه جد عثمان فهو ليس إلا شخصية خرافية وإن اسمه وذهابه إلى بلاد الروم استعير من رواية حقيقية عرفت آنذاك عن احتلال التركمان " الغزاة " المجاهدين " للأناضلو في القرن الحادي عشر وارتبط ذاك باسم الأمير السلجوقي سليمان بن قتلمش الذي أرسله السلاجقة الحاكمون في بغداد في الربع الأخير من القرن الحادي عشر لينظم عمليات أولئك الغزاة ، فتمركز في نيقية ثم عاد بعد احتلال نيقيا من قبل الصليبيين في سنة ١٠٩٧ باتجاه بغداد بقصد الاستيلاء عليها وطرد اقربائه السلاجقة منها ن فقتل في طريق عودته وغرق ابنه قليج أرسلان في نهر الخابور .

ولما كانت الامارة العثمانية مواجهة للأراضي البيزنطية فضلا عن وقوعها على الطرق الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية والمدن العربية الكبرى في بلاد الشام والعراق فقد استطاعت أن تتفوق على الإمارات المجاورة لها وتزداد قوة وتوسعا لأسباب متعددة ، فوقوعها قرب البيزنطيين جعل المجاهدين ويسمون الغزاة ، وهم الذين يحمون الثغور الإسلامية لا يجدون عملا في الإمارات الضعيفة الأخرى التي قامت في النصف الغربي من الأناضول ومنها إمارة منتشا على الساحل الغربي وإمارة تكة على ساحل الأناضول الجنوبي وإمارة سينوب على البحر الأسود ، فهرعوا إلى الإمارة العثمانية وزادوا قوتها ، كما إن موقعها الستراتيجي سهل مجيء العلماء

والعناصر المنظمة ، كالتجار والصناع من داخل العالم الإسلامي إليها وحلت تبعا لذلك مشكلة موارد الإمارة وقد نشط العلماء المدارس الإسلامية وطبقوا تعاليم الدين في نظم الإمارة وأخذوا الجزية وكان التجار والصناع منظمين في ما يشبه نقابات تسمى الأخية أو الاخوان يتعاون فيها أصحاب كل مهنة وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم .

## الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر

قد سبق البرتغاليون غيرهم من الأوربيين في المجال الاستعماري ، فبعد اكتشافهم لطريق رجاء الصالح سنة ١٤٩٨ تمكنوا من الوصول إلى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحرالاحمر والبحر العربي ، وقد احتلوا أغلب موانئ الخليج العربي المهمة وجزيرة وبنو قلاعا دفاعية حصينة في هرمز ومسقط وعمان والقطيف وصحار والبحرين ، وقد جاءوا إلى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفنا كبيرة ذات أسلحة نارية فتاكة لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبل بها فعجزوا عن مقاومتها في بادئ الامر ، كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري .

كان لظهور البرتغاليين أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي وأقطاره ، فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج من مصدر أساس من مصادر ثروتها ، وكانوا بالإضافة إلى ذلك

مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية وكانت غاياتهم واضحة ومحددة أولها الالتفاف حول العرب وشن الحرب عليهم وتوجيه ضربة قاضية للتجار العرب الذين يعملون منذ العصور الوسطى في نقل التجارة الشرقية من الهند والشرق الأقصى إلى موانئ البحر الاحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها من السويس عبر الأراضي المصرية إلى القاهرة فالاسكندرية أو من البصرة عبر العراق وبادية الشام إلى موانئ البحر المتوسط لتنتطرها سفن المدن الإيطالية ومنها جنوه والبندقية وتحملها إلى أوربا . كان الوطن العربي عندما بدأت هجمات البرتغاليين على البحر الاحمر في أوائل القرن السادس عشر يمر في دور انحلال سياسي وعسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دولة إسلامية قد وصلت الذروة في قوتها السياسية والعسكرية ، لذلك اتجهت أنظار بعض العرب إلى الدولة العثمانية كي تعينهم ضد الخطر البرتغالي وعلى سبيل المثال اقترح شريف مكة سنة ١٥١٦ إرسال وفد إلى السلطان سليم طلبا للمساعدة العسكرية غير ان السلطان المملوكي قانصوه الغوري ١٥٠٠ – ١٥١٧ منع سفر ذلك الوفد .

وسرعان ما أدرك المماليك خطر البرتغاليين الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية إلى الهند ، كما يهدد المراكز الإسلامية في الجزيرة العربية خاصة بعد ان اتضحت أهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين ، يتجلى ذلك في رغبة القائد

البرتغالي الفونسو الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق أهداف البرتغاليين الاستعمارية ورغم أن هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن سيتجلى مغزاها في أنها تظهر لنا ان أعظم قادة البرتغال لم ينشر الثل الصليبية العليا هذا ومن جهة أخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من أن رد الفعل لغزوهم سوف لا يقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين يحتمل أن يجيئوا لمساعدة أبناء دينهم ، في الخلي العربي ، وعلى الرغم من اختلاف الأهداف السياسية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الأقطار العربية ، غير ا المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع أثناء الربع الأول من القرن السادس عشر ، خاصة بعد فشل المماليك في محاولتهم حماية الجنوبية وإبعاد الخطر البرتغالي أثناء السنوات الممتدة ين سنتي ١٥٠٦ – ١٥٠٩ من جهة ، واندحار الصفويين الفرس أمام العثمانيين في معركة جالديران سنة ١٥١٤ من جهة أخرى ، فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك بهزيمة الصفويين كتب إلى الملك البرتغالي عمانوئيل الأول السماح له بتجهيز الشاه إسماعيل الصفوي بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويين من إضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

لقد دفعت الضرورة السلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد أن حطم البرتغاليون أسطوله في جوال سنة ١٥٠٩ قرب ميناء ديوا إلى طلب المساعدة البحرية من السلطان العثماني ، فأسرع العثمانيون في إرسال مواد

بناء السفن مع الفنيين المختصين إلى ميناء السويس في كانون الثاني ١٥١١م في هذه الأثناء لم تتوقف فعاليات البرتغاليين في المياه العربية فرغم فشل القائد البوكيرك في احتلال عدن سنة ١٥١٣ بسبب المقاومة العربية الباسلة غير أنه استطاع الدخول إلى البحر الاحمر واحتلال جزيرة قمران ، فأصبح ميناء جدة معرضا لخطر مدفعية البرتغاليين وعندما كمل بناء الاسطول المملوكي عين السلطان الغوري سليمان ريس ، وهو قائد بحري عثماني رئيسا له فأبحر من السويس سنة ١٥١٥ مستهدفا الدفاع عن البحر الأحمر وطرد البرتغاليين منه وإبعاد خطرهم عن مكة المكرمة ، واستطاع في سنة ١٥١٧ وسنة ١٥٢٥ إحباط الهجمات البرتغالية على جدة ونجح العثمانيون في اثناء هذه الفترة في التمركز في زبيد لكنهم فشلوا في تثبيت سيطرتهم على ميناء عدن ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد احتلال العراق

## خصائص الدولة العثمانية

اتسمت الدولة العثمانية بالطابع الإقطاعي والعسكري والديني .أما كونها دولة عسكرية فلأن الشعب العثماني كان مدربا للحربمطواعا للسلاطين . نظرا إلى الحرب على أنها واجبه الأول،واستأثر الجيش . بالمكانة الأولى من عناية السلاطين، وكان للجيش وظيفتين الحرب والاشتراك فالحكم .فهى تعتمد على الجيش وقت السلم كما هو عدتها زمن الحرب. أما من حيث كونها دولة إقطاعية ، فقد تمثل هذا الطابع فنظامين : نظام الإقطاع

العسكرى من ناحية ، ونظام الالــتزام مـنناحية أخرى ، وطبقا للنظام الإقطاعىالعسكرى كان رجال الجيـش يمنحون أرضا زراعية مساحتها صغيرة لزراعتها والاستقرار فيها .وهى عبارة عن إقطاع صغير يسمى ( تيمار ) ، وعلى الفلاح الذيكان يملك هذه الأراضي أن يستمر فى زراعتها بصفته أحد رعاياالسلطان وأما من حيث أنها دولة دينية فذلك نظرا لأنــه كـان للبيئــةالإسلامية وضع معترف به فـالدولة ، وكان السلاطين مرضييـنعلى تدعيم سلطة شيخ الأسلام ، كما تركت الدولة مشايخ الطـرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأتباع .

## ضم البلاد العربية

استفحل أمر الدولة الصفوية، بعد عهد السلطان بايزيد الثاني، الذي استخدم اللين مع الشاه إسماعيل الصفوي، على الرغم من نشاط الخير في نشر المذهب الشيعي بين القبائل التركية البدوية، وقتل الكثير من أهل السنة، بعد استيلائه على بغداد. وكان ذلك يحمل في طياته خطراً كبيراً على الدولة العثمانية، التي تزعمت أهل السنة في ذلك الوقت. إذ أن الشاه إسماعيل الصفوي، الذي جعل من التشيع سياسة لدولته ومذهباً لها، وجد له أعواناً كثيرين في الأناضول. وكان ذلك كفيلاً بأن يفتت وحدة الدولة العثمانية في الأناضول، على وجه الخصوص. فأجَّل السلطان سليم الأول فتوحاته، في

أوروبا، ردحاً من الزمن، وتوجه بكل ما أوتي من قوة نحو الشرق، لوقف ذلك المد الشيعي، وتأديب المماليك، في مصر والشام، المتحالفين مع الصفويين، والعاجزين عن حماية الأماكن المقدسة. وكانت معركة جالديران، عام (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) انتصاراً باهراً للعثمانيين وهزيمة نكراء للصفويين، توغل الجيش العثماني بعدها في إيران حتى وصل إلى تبريز. وقد ثّبت ذلك الانتصار أقدام العثمانيين في الأناضول، وحسنت من صورتهم أمام العالم الإسلامي. غير أن ذلك النصر لم يكن ليكتمل ما لم تتم إزالة التهديدات البرتغالية للبحر الأحمر والأماكن المقدسة، في وقت استغاث فيه أهالي المنطقة بالعثمانيين، إزاء عجز المماليك عن الدفاع عنها، إضافة إلى إيواء المماليك للثائرين على السلاطين العثمانيين، وتحالفهم مع الصفويين ضد العثمانيين.

توجّه السلطان سليم الثاني إلى سوريا، ووقعت بينه وبين الغوري المملوكي معركة، بالقرب من حلب، عند مرج دابق، عام( ٩٢٢هـ/١٥١٦م)، ومني الغوري بالهزيمة، وسقوط قتيلاً، ودخل السلطان سليم الأول مدينة دمشق، وضُمت الأراضي السورية إلى الدولة العثمانية. ثم توجه السلطان سليم إلى القاهرة، وانتصر في معركة الريدانية، بالقرب منها، في عام ٩٢٣هـ (بدايات

عام ١٥١٧م). وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ العثمانيين، اكتملت فيه سيطرتهم على العالم العربي، والتي استمرت أربعة قرون. وأعلن بذلك العثمانيون حمايتهم للأماكن المقدسة، وجعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية.

## النزاع بين العثمانيين والمماليك

لقد توفرت أسباب النزاع بين الدولة العثمانية وبين دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام لها سيادة على إقليم الحجاز، وكان أول أسباب النزاع الخلاف على تخطيط الحدود بين الدولتين فى طرسوس فى المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبى الشرقى لآسيا الصغرى وبين شمالي الشام فقد تناثرت فى هذه المنطقة إمارات وقبائل تأرجحت فى ولائها بين الدولة العثمانية ودولة المماليك، وكان هذا مبعث اضطراب فى العلاقات بين الدولتين، ومصدر نزاع مستمر وأراد السلطان سليم الأول أولا لأمر أن يحسم مسألة الحدود، بالسيطرة تماما على منطقتهاومكانها. وهناك سبب ثان هو أن السلطان قانصوه الغورى(١٥٠١ –١٥١٦) سلطان دولة المماليك إداة إليه بعض الأمراءالعثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم وأراد أن يتخذ وجودهم لديه آواه لإثارة مزيد من المتاعب فى وجه السلطان سليم. وكان السبب الثالث والأهم هو السياسة الصبيانية التى اتبعها السلطان الغورى أثناء الحرب التى قامت بين السلطان سليم وبين الشاه إسماعيل

الصغرى، فقد وقف الغورى موقفـا غـير ودى من العثمانيين دون أن يفيد هذا الموقف الشاه اسماعيل، فهو لم يلتزم بالحيدة بين العثمانيين والصفويين، وهو لم يتخذ موقفـا عدائيـاً صريحاً من السلطان سليم، فكان فى استطاعته لو اتخـذ الموقـف العدائي أن يقدم المساعدة للصفويين وقت توغل الجيـش العثمـانىفى اتجاه فارس وأن يحصره بين قوتين الجيش الصفوي من الأمام، والجيش المملوكى من الخلف، مما يعرض الجيـش العثمـانى لخطر الإبادة، وكان في استطاعة الجيش المملوكى أن يقطع عليـهخط الرجعة إلى بلاده وكان فى استطاعته أكثر من ذلك ان يتقدم عليه أراضى الدولة العثمانية، وتكون النتيجة أن هذا الجيش يعجز عـنالدفاع عن بلاده، وعن الإغارة على فارس، ولكن لم يحدث شـيء من هذه الخطط العسكرية، واكتفى السلطان الغورى بتأييد شـكلى، وأصدر الآوامر إلى الأمير علاء الدولـة حـاكم إمـارة "دلفـادر" المشمولة بحماية دولة المماليك منع تقديم المؤن والاغذية اللازمـة للجيش العثمانى فى أثناء توغله فى فارس، فأعاق هذا المنع تقـدم الجيش العثمانى بعض الوقت واشتد ضيق السلطان سليم على هذا التصرف، وعزم على الانتقام، وفى طريق عودته إلى بلاده أمـر السلطان سليم بقتل الأمير علاء الدين، واستولى على جميع أراضيه بما فى ذلك عاصمته "ابلستين"، وبات العثمانيون على مقربة من الأطراف المملوكية، وأصبحت دولة المماليك معرضة لهجوم العثمانيين، وأحس السلطان الغورى بالخطر واندلعت الحربين الدولتين واستطاع العثمانيون

إنزال هزيمة ساحقة بالجيش المملوكى فى موقعة "مرج دابق" شمال حلب فى أغسطس ١٥١٦، وقتل السلطان الغورى .

## غزو مصر والشام

ولما رأى السلطان سليم عمق الهزيمة التى أنزلها بالمماليك وسع نطاق الحرب وتساقطت تباعا المدن الكبرى فى الشام وحلب وحماه وحمص ودمشق التى أقام بها قرابة شهرين تسابق خلالها الأمراء والأعيان إلى السلطان يعلنون ولائهم للحكم الجديد ،وتشجع السلطان سليم على غزو مصر بعد غزو الشام، وواصل زحفه جنوبا حتى بلغ مصر، وكان الأمراء فى مصر قد اختاروا "طومان باى" سلطانا للدولة المملوكية، وفى موقعة الريدانية فى ضواحى القاهرة التحم الجيشان العثمانى والمملوكى فى ٢٣ يناير ١٥١٧ واشترك فيها السلطان سليم وطومان باى، وقد تمكن الأخير من ذبح سنان باشا الصدر الأعظم معتقدا أنه السلطان سليم، وكانت الخسائر من الجانبين فادحة، ودخل العثمانيون القاهرة يوم الجمعة ٢٣يناير ١٥١٧ م، وقبضوا على السلطان طومان باى وتم شنقه فى١٣ أبريل ١٥١٧ عند باب زويلة وطويت دولة المماليك ،ودخلت مصر والشام فى نطاق الممتلكات العثمانية .

## الفصل الثالث

## التوسع العثمانى شمال أفريقيا

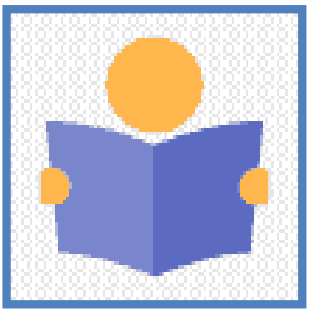

بسطت الدولة العثمانية سيادتها على ثلاثة أقاليم فى شمال أفريقيا فى القرن السادس عشر ، وكانت حسب ترتيب دخولها تحت السيادة العثمانية : الجزائر وطرابلس وتونس ، ولم تمد الدولة نفوذها إلى مراكش ، وكان سكان تلك المناطق وبخاصة الجزائر وطرابلس قد استنجدوا بالدولة العثمانية على أساس أنها أكبر وأقوى دولة إسلامية اكتسحت دولاً أوربية عديدة بالإضافة إلى مصر والشرق العربى الآسيوى ، وطالب سكان شمال أفريقيا بإنقاذهم من الزحف الصليبى الاستعمارى الأوربى الذى كان خطره يتفاقم يوماً بعد يوم ، واستجابت الدولة لاستغاثاتهم .

لذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى هذه الأقاليم دخولاً عسكرياً ضد أهالى هذه البلاد ، أو تدخل مباشر من استانبول على غرار ما حدث فى الشام ومصر أو العراق ، ولكن جاؤها منقذين للسكان المستنجدين لهم من أخطار القضاء على دينهم وطمس عروبتهم وتحويل بلادهم إلى جزء من

العالم المسيحى الصليبى ، أما تونس فكان الوضع فيها يختلف اختلافاً جزئياً عن الوضع فى الجزائر وطرابلس ، اشتد الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان على رأسها الإمبراطور شارل الخامس ، تبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة ، وفى إحداها انتصر فيها الإمبراطور أقامت البابوية فى روما الاحتفالات ابتهاجاً بانتزاع تونس من المسلمين ، ونجح الإمبراطور فى أن يصطنع أحد الأمراء ، وهو مولاى الحسن الحفصى ، ليكون عميلاً للاستعمار وقبل أن يحكم تونس باسم الإمبراطور وتحت حمايته.

جاء هذا التوسع من خلال مراحل الكفاح البحرى للمسلمين المغاربة ضد المسيحيين الأوربيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، من خلال نشاط كل ولاية فى هذا المجال طوال القرون الخمسة من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، أى من وقت نزول البرتغاليين والأسبان على الشواطئ المغربية حتى وقوع الاحتلال الفرنسى ثم الإيطالى للأقطار المغربية بكاملها .

كان الحكام الأسبان والبرتغاليين قد أصروا فى معاداتهم للمسلمين فى الأندلس وشمال أفريقيا على التذرع باللون المسيحى حتى يضمنوا الحماس الشعبى ، وأن هذا اللون الدينى كان يخفى وراءه صراعاً على السلطة وعلى الموارد الاقتصادية ، ومن ثم وجه هؤلاء الحكام أنظار

شعوبهم نحو الخارج ، وإلى إخضاع بقايا المسلمين واليهود فى شبه جزيرة أيبيريا لمحاكم التفتيش ، مما اضطر أعداداً كبيرة منهم إلى الهجرة إلى المغرب الكبير فراراً بأرواحهم وأعراضهم وأموالهم .

وحينما تعقبت سفن الأسبان الفارين من المسلمين كان من الطبيعى أن يخرج رجال البحر المغاربة لتأمين المسلمين النازحين من الأندلس والدفاع عنهم ضد سفن المتعقبين لهم من الأسبان ، الذين اتخذوا أسلوباً وحشياً فى التعامل مع المسلمين الذين يقعون فى أيديهم ، مما أدى إلى صدام بحرى بين سفن المغاربة والسفن الإسبانية ، وقد أدى ذلك الصدام إلى ظهور قيادات بحرية إسلامية قوية عندها القدرة على منازلة الأعداء والقيام بعمليات الجهاد الإسلامى البحرى . وكان رجال الجهاد الإسلامى البحرى يخرجون على سفنهم المسلحة لاستقبال سفن المسلمين الفارين من شبه جزيرة أيبيريا والدفاع عنها ، وكانت سفن المسلمين مجهزة بالتسليح الذى يمكنها منازلة الأعداء فى البحر. لذلك فلا يمكن أن نساير المؤرخين الأوربيين المغرضين فى إطلاق لفظ قرصنة على عمليات الجهاد البحرى الإسلامى ، فسفن القراصنة كانت تخضع لبعض رؤساء البحر الذين يشبهون فى عملياتهم إلى حد بعيد عمليات قطاع الطرق ولا يتراجعون عن مهاجمة أية سفينة ، حتى وإن كانت تابعة لجيرانهم أو لحكوماتهم حتى يتمكنوا من أسرها والاستيلاء على حمولاتها

بدأ نشاط الأسبان الاستعمارى فى شمال أفريقيا بعد أن نجحوا فى تضييق الوجود العربى فى الأندلس ، فاستولوا على ميناء مليلة المغربى ، وأرسلوا حملة فى عام ١٥٠٩ للاستيلاء على ميناء المرسى الكبير ثم زحفوا صوب وهران فسقطت فى أيديهم وأصبحت مركز نشاطهم فى الشمال الأفريقى.وواصل الأسبان فتوحهم فى الجزائر فاستولوا على بجاية وشرشال وبونه ( عنابة ) وغيرها من المدن الساحلية ، وبنى الأسبان على جزيرة فى موقع يواجه مدينة الجزائر الحالية حصن البنون Penon وخصصت لهم عدة موانى بالساحل الشمالى لأفريقيا المطلة على البحر المتوسط .

فى عام ١٥١٥ استولى الأسبان على ميناء طرابلس واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية فى البحر المتوسط وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاماً ثم تنازلوا عنها فى عام ١٥٣٥ لفرسان القديس يوحنا فى مالطة فحكموها بدورهم حتى انتزعها منهم الأتراك العثمانيون فى عام ١٥٥١. وكانت تونس فى القرن السادس عشر من أهم مراكز الصدام بين الأسبان والعثمانيين ، وخضعت للأسبان منذ الحملة التى قادها كارلوس الخامس على تونس العاصمة عام ١٥٣٥ ، وحتى عام ١٥٧٤ حين خضعت لسلطة العثمانيين ، ثم أصبحت عام ١٨٨١ محمية فرنسية. بدأت عمليات الجهاد البحرى العثمانى فى شمال أفريقيا مع بروز بابا عروج الذى ذاق مرارة الأسر فى سفن المسيحيين فى صفوف المجاهدين ، ولكنه هرب وعمل فى سفن

الدولة الحفصية ، وتعاون مع أخيه خير الدين بربروسا فى إنشاء إمارة مستقلة فى جزيرة جربة اتخذها قاعدة بحرية جمع فيها المتطوعين ، وأعد فيها السفن ، بدأ بابا عروج نشاطه فى عام ١٥١٠ وكان يمتلك عشر سفن ، وسرعان ما اشتهر اسمه فى عمليات الجهاد البحرى ضد غارات الأسبان ، كما نجح فى أن تكون بجاية أول ميناء يتمكن من تخليصه من حكم الأسبان ٠ وخلال المدة بين عامى ١٥٢٠ و ١٥٢٥ أخضع خير الدين الملاحة فى البحر المتوسط لسيطرة الأساطيل الإسلامية ، وهابته جميع الدول الأوربية ولقد عمل خير الدين بربروسا على تزويد أسطوله بوحدات بحرية خفيفة وسريعة الحركة ، وأصبح له أسطول مرهوب الجانب فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .كف الأسبانيون عن مهاجمة الجزائر ، ولكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية والمغربية إلى تونس ، واستطاع أندريا دوريا القائد البحرى الإسبانى الاستيلاء على عدة مدن تونسية مثل صفاقس وسوسة ومناستير مما أثار سخط السكان على بنى حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية ، واندلعت ثورات داخلية ضدهم ، واضطر مولاى الحسن إلى الرحيل إلى أوربا ملتمساً المساعدة من الأوربيين.

الجدير بالذكر أن خير الدين أثبت أنه المجاهد البحرى الأول فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ضد القوى المتربصة بالإسلام والمسلمين ، ومن ثم دخل فى صراع بحرى وأرضى مع هذه القوى استطاع خلاله من استعادة

الأراضى المغربية من أيدى الأسبان وأنشأ مدينة الجزائر عام ١٥٢٩ ، واتخذها عاصمة لأمارته المجاهدة. ففى عام ١٥٣٢ قاد أندريا دوريا حملة أسبانية انقضت على المركز العسكرى العثمانى كورون coron فى المورة ، إلا أنه بعد ذلك بعامين ١٥٣٤ تبخرت هذه الآمال المسيحية إذ أن خير الدين بربروسا حاكم الجزائر ، وأمير البحر والقرصان الأعظم ، قد تحرك بأتباعه إلى اسطنبول ووضع نفسه تحت إمرة السلطان ، وحتى وفاة بربروسا فى عام ١٥٤٦ ، كان يقود الحزب الداعى إلى الحرب البحرية فى بلاط السلطان ، مرجحاً بذلك اتجاهاً جديداً للسياسة العثمانية ، عماده التوجه البحرى ،وقد بدأ بربروسا فى دوره الجديد كأمير بحر عثمانى ، فى الاستيلاء على تونس من حاكمها المحلى الذى كان صنيعة للأسبان ، وقد قاد شارل ( كارلوس ) الخامس بنفسه عملية بحرية لاستعادة السيطرة على تونس فى ١٥٣٥ ، تضم ٤٠٠ سفينة و٢٨٠٠٠ جندى ، وتعتمد على تجارب الأمراء الحفصيين معه ، واستولى على تونس. فرد عليه بربروسا بغارات وحشية على سواحل أسبانيا وجزر البليار قبل نهاية العام ، واستولى منها على ستة آلاف أسير ، وعاد بهم إلى مدينة الجزائر فمنح السلطان العثمانى خير الدين لقب بيكلر بك أفريقيا ، أى بك بكوات المغرب ، ثم منحه لقب قبودان باشاأى قبطان البحر ، وأعطاه القيادة العامة للأساطيل العثمانية جميعها ، فصار منذ ذلك الوقت – فى العشرينات من القرن السادس عشر

– أكثر من مجرد أمير للبحر ، بل أنه أصبح رئيساً لدولة وإن كانت هذه الدولة غير تامة السيادة .

بعد الهزيمة الفادحة التى نزلت بالإمبراطور شارل الخامس أمام مدينة الجزائر فى أواخر أكتوبر ١٥٤١ بسبب عاصفة شديدة شتتت أسطوله وأصبحت الجزائر آمنه ، بل أصبحت فى نظر الأوربيين مدينة لاتقهر ، ولم يلبث خير الدين أن توفى فى عام ١٥٤٦ . وتقديراً لمجهودات خير الدين أسند السلطان منصب بكلربكية الجزائر إلى ابنه حسن باشا الذى واجه القوى التى تصدت لأبيه من قبل وهى :

١ – الأسبان فى وهران .

٢ – الأسرة الزيانية فى تلمسان وكانوا يحاولون اللعب على الطرفين العثمانى والأسبانى .

٣ – الأسرة السعدية الناشئة فى مراكش .

ورأى حسن باشا أن يتعاون مع الأسرة السعدية ضد الأسبان فى وهران ، إلا أن السعديين استغلوا هذا التحالف فى السيطرة على تلمسان عام ١٥٥٠ وتوسعوا بشكل يهدد العثمانيين لا الأسبان فأسرع حسن باشا إلى وضع يده على تلمسان ، ولكن دون أن يقضى الأسرة الزيانية التى قضى

عليها فعلاً صالح بن باديس الذى حل محل حسن باشا فى الحكم ١٥٥١ ، واستولى ابن باديس على " بجاية " من يد الأسبان ١٥٥٥ ، ولكنه توفى .

دبت الفوضى فى البلاد واستبد الجند ، وقتلوا الباشا ، مما جعل السلطان العثمانى يرسل إليهم حسن باشا ابن خير الدين ليعيد الهدوء ١٥٥٧ ، وقد سيطر على الجزائر وعلى تلمسان ، ومع هذا لم يلبث الجند أن تمردوا وقبضوا على حسن باشا وأرسلوه مكبلاً إلى الآستانة ١٥٦١ ، إلا أن السلطان أعاده إلى الجزائر ١٥٦٢ ليتابع العمل من أجل تحرير وهران ، ومع أنه لم يوفق فقد كافأه السلطان بتعيينه قبطان باشى الأسطول العثمانى وتوفى فى ١٥٧٢. واستطاع الأتراك العثمانيون فى عام ١٥٥٨ أن يوجهوا ضربة قوية للجيوش الأسبانية فى قرب مستغانم ، كما استطاعوا انتزاع طرابلس من فرسان بيت المقدس ، وحاول العثمانيون فى عام ١٥٦٥ انتزاع مالطة أيضاً من يد فرسان بيت المقدس وذلك لأهمية موقعها البحرى

وقد اشتهر من بين أمراء البحر فى الحوض الغربى للبحر المتوسط : صالح ريس ، وحسن باشا بن خيرالدين ، والعلج على ، ولقد قام هذا الأخير بالهجوم على الأسبانيين فى تونس عام ١٥٦٩ (١٥) ، وانتزعت الدولة العثمانية تونس ١٥٦٩ وأعادتها إلى رحاب الكتلة الإسلامية ، ولكن الدولة العثمانية دفعت ثمناً باهظاً ، فقد تكون تحالف دولى صليبى ضدها أوقع بها هزيمة بحرية فادحة فى معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١ .شجعت هذه

الهزيمة أسبانيا على إعادة غزو تونس وإعادة حكم الحفصيين إليها، وتعتبر هذه الموقعة من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، ولقد وقعت بالقرب من سواحل مالطة فى البحر الأبيض المتوسط ، وانتصر فيها المسيحيون فتوقف امتداد السلطة الإسلامية ، وعجز المسلمون بعدها عن تحرير الجيوب والقواعد التى كانت أسبانيا قد احتلتها على سواحل المغرب ، وظلت وهران فى أيديهم حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر. أما تونس فلم يستطع الأسبان الاحتفاظ بها سوى عام واحد وعاد إليها العثمانيون عام ١٥٧٤ ليستقر حكمهم فيها وليؤسسوا النيابة الثالثة والأخيرة فى شمال أفريقيا. ولم يتخل فيليب الثانى الذى جاء بعد شارل الخامس عن الصراع ، ولكنه أعطاه هدفاً آخر ، لم يكن قد تخلى عنه ، بينما كانت " العصبة المقدسة " مستمرة فى مداولاتها : وهو غزو تونس ، وكانت الجزائر تحت قيادة العلج على بيكلر بك أفريقيا الجديد ، قد أفادوا من الصعوبات التى تواجه خصمهم الكبير والذى كان مشغولاً بثورات الموريسكيين ، لكى يطردوا من تونس ذلك الأمير الذى كان تحت الحماية الأسبانية ، ويتركوا حامية لهم هناك

عند نهاية عام ١٥٧٣ وصل دون جوان على رأس أسطول واحتل تونس وترك بها حامية إسبانية كما هو الحال فى حلق الواد ، ولكنهم لم يحسبوا حساب العثمانيين ، واعتقدوا أنهم مشغولين بالعمل على التخلص من الضربات التى كانت قد نزلت بهم فى ليبانتو ، وفى صيف ١٥٧٤ وقبل

أن يكون دون جوان قد استعد للمعركة ، حضر أسطول مع جيش ، واستولى على تونس وعلى حلق الواد .

كانت أوربا فى دهشتها تنتظر رد فعل إسبانى سريع، ولكن فيليب الثانى لم يكن مثل شارل ، وكان من أولئك الذين يستسلمون حين يكون الحظ فى غير جانبهم ، وفقد الغرب المسيحى تونس وبشكل نهائى، وكانت إسبانيا قد تبجحت بذكر أنها قد قطعت لحية الدولة العثمانية فى ليبانتو، ولكن العلج على تمكن من قطع يد الأجانب فى تونس ، وأن اللحية لتنمو ، أما اليد المقطوعة فتظل دائماً بتراء ، كما قال الصدر الأعظم ، معلقاً على هذا الموقف لسفير البندقية فى الآستانة. الجدير بالذكر أن السلطان العثمانى سليم الثانى لم يكن فى إمكانه – سواء قبل عام ١٥٦٩ أو بعده – أن يفكر فى مشروع خطير مثل إعادة الحكم الإسلامى إلى أسبانيا ، أما العلج على فقد كان يفكر فى مشروعين : طرد الأسبان من تونس ، وإعادة الحكم الإسلامى إلى أسبانيا ، وفى تقديره للموقف الحربى رأى أن يجعل الأسبقية فى التنفيذ للمشروع الثانى على أساس أن نجاحه فى تحقيقه يؤدى إلى انكماش الوجود المسيحى فى أسبانيا ، وبذلك يضع حداً للتهديد الصليبى الأسبانى المستمر لشمال أفريقيا ويسهل عليه طرد الأسبان والبرتغاليين نهائياً من المراكز التى كانت لا تزال فى أيديهم فى شمال أفريقيا.

تنفيذاً لهذا المشروع الحربى عقد العلج على اتفاقاً سرياً فى مطلع ١٥٦٩ مع الثوار المسلمين الذين اعتصموا بجبال الأندلس على ان يقوموا بثورة هادرة فى الوقت الذى تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مراكز معينة على الساحل الأسبانى، ونجح العلج على فى إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الأسبانى فى عام ١٥٦٩م.

فى هذه الأثناء وصلته الأنباء عن استعداد دون جوان أمير النمسا لغزو الجزائر فعدل عن مشروعه مؤقتاًورأى أن يبدأ بالتخلص من المراكز الأسبانية فى تونس ، ومع ذلك فإن مشروع فتح أسبانيا ظل حياً فى أذهان الحكام الذين تعاقبوا على نيابة الجزائر طوال الفترة الباقية من القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر وكانت هذه المشروعات تقوم على التعاون الوثيق بين نيابة الجزائر ومسلمى أسبانيا . الغريب فى الأمر أنه مع تسجيل الحقائق التاريخية بأن أرض العرب المسلمين فى أقطار الشمال الأفريقى أرض محتلة من جانب القوى الأوربية المسيحية المتحالفة إلا أن المؤرخين الأوربيين أطلقوا على دفاع العرب المسلمين عن أرضهم وحياتهم ضد أعدائهم بأنها عمليات قرصنة ، وامتلأت كتبهم بتعبيرات هجمات القراصنة العرب المسلمين من أقطار الشمال الأفريقى ، بينما هى فى الواقع دفاع مشروع عن الأرض والعرض ، وحرب وجهاد إسلامى ، كما أطلق عليها مؤرخو ذلك الزمان من العرب المسلمين .

أما بالنسبة للمغرب فيعتبر البلد الوحيد الذى نجح فى التصدى للدولة العثمانية والاحتفاظ بوضعية خاصة من هذه الدولة منذ أن شملت بوجودها العالم العربى خلال القرن السادس عشر . ومما يلفت النظر حقيقة أن المغرب تفرد بالإفلات من القبضة العثمانية ، ومن الملاحظ فى هذا الجانب أن العلاقات العثمانية – المغربية قد مرت بثلاث مراحل .

استغرقت أولاها أغلب القرن السادس عشر، وهو القرن الذى عرف من ناحية الهجمة الأوربية ( البرتغالية – الأسبانية ) على الشمال الأفريقى ، كما عرف من ناحية أخرى نجاح العثمانيين فى الهيمنة على شتى أنحاء العالم العربى . ولقد حاول الأتراك خلال هذا القرن ضم المغرب كما ضموا سائر الشمال الأفريقى من قبله غير أنهم أخفقوا فى ذلك ، ويمكن أن يعزى هذا الإخفاق لأكثر من سبب :

١- بينما عجز أهل بقية الشمال الأفريقى عن مقاومة الهجمة الأوربية مما دعاهم إلى الاستنجاد بالسلاطين العثمانيين ، فإن المغاربة قد نجحوا فى هذا التصدى حتى أنه قبل انتصاف القرن السادس عشر لم يكن قد بقى للبرتغاليين فى المغرب سوى جيوب صغيرة تقوم بالدفاع عنها حاميات ضئيلة لا تتجاوز ٢٥٠٠ رجل .

٢- نجاح السلطة المغربية فى تجديد شبابها ذلك أن الحكم الوطاسى كان بالإمكان أن يؤدى إلى فراغ سياسى يستوجب ملأه بقوة إسلامية ، وهو الدور الذى قامت به الدولة العثمانية فى سائر البلاد العربية ، أما فى المغرب فقد اختلف الأمر حين نجح السعديون فى ملء هذا الفراغ وبالتالى لم تكن ثمة حاجة لأى قوة أخرى تأتى إلى البلاد حتى وإن حاول العثمانيون فى هذه المناسبة القيام بنفس الدور المرحلة الثانية وقد اتضحت خلال القرن السابع عشر وكانت الدولة العثمانية قد فقدت خلالها قوة اندفاعها ولم تعد تشكل بالنسبة لدولة المغرب خطراً كبيراً ، غير أن الوجود التركى على الحدود الشرقية للبلاد كثيراً ما كان يسبب النزاعات بين الطرفين ولكنها فى النهاية كان أغلبها مجرد نزاعات حول الحدود ، وكان الصدام الذى جرى بين مولاى إسماعيل والقوة العثمانية فى الجزائر عام ١٦٧٨ من قبيل هذه النزاعات حتى أن الأتراك كاتبوا السلطان المغربى يطلبون منه أن يقف عند حد أسلافه ، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فإنهم ما زاحموهم قط فى بلادهم . المرحلة الثالثة اتضحت منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر حين أخذت أسباب الضعف تلم بالدولة العثمانية وما استتبع ذلك من تزايد الأطماع الأوربية فيها مما ترتب عليه زوال كل دواعى التخوف القديمة ، وتقدم العلاقة المغربية – العثمانية على عهد مولاى محمد بن عبدالله النموذج الأمثل لهذه المرحلة.

وفى المغرب تصعدت بشدة الحرب فى القرن الخامس عشر، بحيث فقدت الأساطيل المغربية سيطرتها على السواحل المغربية، بينما احتل البرتغاليون سبتة وأسسوا مراكز تجارية فى صافى والجديدة وأغادير ، واستمر وجود هذه المراكز مع ما رافقها من ازدياد عدد الأوربيين فى المغرب، حتى نهاية القرن السادس عشر ، ونحو نهاية القرن السابع عشر استطاع مولاى إسماعيل ( ١٦٧٢ – ١٧٢٧ ) طرد معظم المغامرين الأوربيين وقلص ممالك أسبانيا حتى انحصرت فى سبتة ومليلة ، وما تزال تسيطر على هذين الجيبين حتى اليوم بعد أن تخلت عن محميتها فى الشمال المغربى عام ١٩٥٦ .انتهاء القرن السادس عشر أخذ نشاط الأسبان فى الشمال الأفريقى يضعف ، بينما كان الأتراك العثمانيون قد ثبتوا أقدامهم فى المغرب العربى كله باستثناء المغرب الأقصى وقد لعبت الامتيازات الأجنبية التى أبرمتها الدول الأوربية مع السلطان العثمانى والتى طبقت فى البلاد العربية نتيجة لوقوعها تحت السيادة العثمانية ، دوراً خطيراً فى تسهيل وقوع الشعوب العربية فى قبضة الاستعمار الأوربى ، خصوصاً بعد أن ضعفت الدولة العثمانية ، وضعفت معها الولايات العثمانية .

الجدير بالذكر أن ضعف الدولة العثمانية كان من أهم الأسباب التى أدت إلى دخول الاستعمار الأوربى إلى العالم العربى ، حيث أن الدولة العثمانية لم تستطع حماية هذه الولايات ، كما أن هذه الولايات لم تستطع

الزود عن نفسها لتخلفها تبعاً لتخلف الدولة العثمانية ، بجانب فرض العزلة على العالم العربى من قبل الدولة العثمانية .

# الفصل الرابع

# الدولة العثمانية

# والقوى المحلية في ولايات المشرق العربي

كانت هناك بعض الزعامات المحلية استأثرت منذ النصف الثاني من

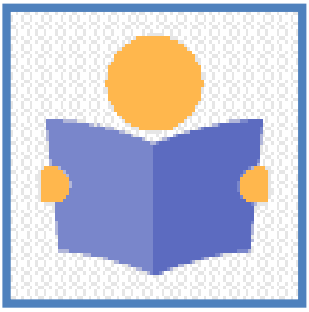

القرن السادس عشر على الأقل بالحكم وأقامت أسر حاكمة أو عصبيات محلية وطنية ، ولعل من أبرز القوى التي ظهرت في الولايات العربية المماليك في بغداد والجليليون في الموصل ، والمماليك في مصر وآل الظاهر العمر في فلسطين وآل معن في لبنان وآل العظم في دمشق وآل القرمنلي في طرابلس والأسرة الحسينية في تونس ، وقد قامت بين القوى المحلية في الولايات العربية والدولة العثمانية علاقات تراوحت بين الاستقلال الفعلي في مكان وإقامة شيء من التوازن بين الحكومة المركزية في استانبول والحكومات المحلية في مكان آخر ، ومما يلحظ أن لضعف ارتباطها السلطان في المركز وانحلال عساكر الانكشارية وعجزها وضعف ارتباطها بالثكنات العسكرية واعتماد بعض الولاة على التكوينات العسكرية إبان السيطرة دورا كبيرا في قيام هذه الظاهرة العامة في تاريخ الوطن العربي إبان السيطرة العثمانية ، وسنحاول هنا متابعة التطورات السياسية في

بعض الولايات العربية التي حققت نوعا من الاستقلال عن الدولة العثمانية بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر .

## المماليك في بغداد

لم تترسخ السيطرة العثمانية في أعقاب الاحتلال العثماني الأول للعراق سنة ١٥٣٤ وذلك لتجدد واستمرار الأطماع التوسعية الإيرانية فقد استطاع الإيرانيون استغلال العصيان المسلح الذي قام به بكر صوباشي أحد ضباط الحامية الانكشارية في بغداد سنة ١٦٢٣ فأعادوا احتلال العراق مرة ثانية سنة ١٦٢٣إن هذا الاحتلال الذي استمر قرابة ١٥ سنة واجه مقاومة عنيفة من العراقيين الذي شعروا بالقهر والظلم وقد اتخذت المقاومة أشكالا وأساليب مختلفة ولم يكن مرد هذه المقاومة الولاء العراقي للحكم العثماني بقدر ما كان تعبيرا عن الشعور الوطني للعراقيين ضمن الإطار العثماني أولا ، ولأن هذا الاحتلال يعبر في جانب منه عن العداء التاريخي الفارسي للعرب .

بالرغم من أوضاع الضعف والتدهور التي كانت تعيشها الدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة من سنة ١٥٧٤ – ١٦٣٢ وذلك بسبب انغماس السلطان مراد الثالث ١٥٧٤ – ١٥٩٥ في حياة الحريم وخضوعه لإحدى زوجاته ، وهي بافو من نبيلات البندقية من جهة ، ومحاولات الانكشارية التلاعب بمقدرات السلطنة والتدخل في اختيار السلاطين من جهة أخرى ، فإن الدولة العثمانية وضعت مسألة طرد الإيرانيين من بغداد في مقدمة اهتماماتها .

فقد أرسلت حملتين عسكريتين الأولى في سنة ١٦٢٥ والثانية في سنة ١٦٢٩ إلا أنهما فشلتا لأن مساوئ الباب العالي انعكست عليهما أولا ولافتقار قياداتهما إلى الصرامة والضبط العسكري ، لذلك بدأت الاستعدادات للحملة الثالثة التي قادها السلطان مراد الرابع ١٦٢٣ – ١٦٤٠ بنفسه واستطاع في ٢٥ كانون الأول ١٦٣٨ دخول بغداد ووضع نهاية أبدية للسيطرة الفارسية على العراق بعد عقد معاهدة زهاب الحدودية مع إيران في ١٧ أيار ١٦٣٩ والتي تعد أول محاولة لتخطيط الحدود بين الدولتين على أساس عود المناطق والمدن لكل منها أي على شكل مناطق حدود ، واتخذت هذه المعاهدة أساس استندت عليه المعاهدات التاليةلقد كانت مشاركة العراقيين في الحرب ضد إيران واضحة فعندما زحفت الحملة الأولى مثلا ساهمت ٢٩ قرية في شهر زور وحدها في القتال ، كما اشتركت قبائل عربية في القتال وتزويد الجيش العثماني بالرجال والمؤن ، فمطلك ابو ريشة شيخ عرب الجزيرة قدم لحملة مراد الرابع عشرة آلاف بعير وهي عبارة عن مؤن وصفها المؤخرون بأنها عظيمة لم يعقب الانتصار العسكري العثماني أي إصلاح لأوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة ، وظلت الأمور على ما كانت عليه من الاضطرابات العشائرية والتمردات الانكشارية والأزمات الاقتصادية واستمرار الأطماع الإيرانية ، لذلك أصبح الولاة يفكرون في الاعتماد على قوات محلية لمواجهة تمردات العشائر الانكشارية ، فكلفهم ذلك كثيرا ، واضطر بعضهم في سبيل جمع المال إلى رفع قيمة الضريبة

والتلاعب في النقد ، وزادت حالة الفوضى وعدم الاستقرار حتى افراسياب وكان كتابا من كتاب الجند في البصرة استطاع في سنة ١٥٩٦ أن يشتري حكم البصرة من واليها العثماني ، ويؤسس فيها اسرة حاكمة امتدت إلى سنة ١٦٦٢ فألقى بذلك على كاهل والي بغداد مهمة استعادتها كما أصبح من واجب باشا بغداد اخماد الحركات العشائرية التي نشبت في شمال العراق وجنوبه حقا كان العراق في حاجة إلى وال قوي يستقر فيه ليضع خطة معينة لمعالجة مشكلاته وإنقاذه من التدهور الذي أصبح يعانيه خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر ، وقد تيسر للعراق مثل هذا الحاكم إذ صادف أن تولى حكم غداد سنة ١٧٠٤ حسن باشا وكان من الولاة القديرين الذين عملوا في ولايات حلب وأورفه وقونيه وديار بكر قبل تعيينه واليا على بغداد ، وبتعيين حسن باشا يبدأ عهد جديد في تاريخ العراق الحديث ، لما لهذا الوالي من دور واضح في تأسيس أسرة حاكمة في العراق عرفت بحكومة المماليك " الكوله منذ " قدر لها أن تصل إلى السلطة في سنة ١٧٤٩ وتستأثر بالحكم حتى سنة ١٨٣١ فكيف تأسست هذه الأسرة الحاكمة وما علاقتها بالدولة العثمانية ؟

## الجليليون في الموصل

**الجليليون في الموصل :**

أما في الموصل فقد استطاعت اسرة آل عبد الجليل العربية المعروفة بالنفوذ والثراء الواسع السيطرة على مقدرات المدينة ، بعد ان قدمت

للعثمانيين خدمات جلى إبان حروبهم المتعددة مع الإيرانيين ، وقد تميزت ولاية الموصل خلال فترة حكم الجليليين الممتدة من ١٧٢٦ إلى ١٨٣٤ بشخصية محلية واضحة المعالم ثقافيا واجتماعيا وعمرانيا وسياسيا واقتصاديا ، وبرز من حكامها ولاة عديدون لعل من أبرزهم الحاج حسين باشا الجليلي ١٧٣٠ – ١٧٥٧ وكان لنجاح الحكم الجليلي في دفع الخطر الإيراني والحيلولة دون امتداده نحو الشام والأناضول أثر كبير في تقوية مركز الأسرة الجليلية لدى الباب العالي من جهة والتفاف الموصليين حولها من جهة أخرى . واجهت الأسرة الجليلية ظروف الانقسام والتنافس بين أفرادها بعد وفاة الحاج حسين باشا الجليلي وقد أدى الانقسام في بعض الاحيان إلى أن تشهد شوارع الموصل أزيز الرصاص ودوي القنابل ، ومع ذلك فقد حافظت الأسرة الجليلية على سمعتها في استانبول نتيجة لاستمرارها في الوفاء بالتزاماتها المالية للباب العالي من جهة ، واستعدادها للمساهمة في الحملات العثمانية الموجهة لإخماد انتفاضات العشائر العربية والكردية من جهة أخرى .

لقد حاول بعض الولاة المماليك في بغداد التدخل في شؤون الموصل وفرض سيطرتهم عليها ، وإبعاد الجليليين عنها إلا انهم فشلوا في ذلك وفي الوقت نفسه ، فقد تعاون الجليليون مع حكام السليمانية من آل بابان ضد محاولات ولاة بغداد التدخل في شؤونها خلال السنوات الممتدة من ١٨١٠ وحتى ١٨١٣ وعندما تولى داوود باشا حكم المماليك في بغداد سنة ١٨١٧

أصبح لمماليك بغداد نفوذ قوي في الموصل بعد الثورة الشعبية التي نشبت ضد الجليليين في سنة ١٨٢٦ وقادها العمريون بسبب احتكار الوالي يحيى باشا الجليلي للحنطة وخزنها وبيعها بأسعار باهظة للناس ، الأمر الذي جعل المدينة تعاني من ضيق اقتصادي شديد ، وقد نجح الثوار في طرد يحيى باشا الجليلي إلا ان ذلك لم يدم طويلا إذ عاد يحيى باشا الجليلي إلى حكم الموصل بقوة سلاح داوود باشا ولم يرض الموصليون عن ذلك ، إذ ثروا ثانية سنة ١٨٢٨ وتزعم قاسم العمري الثورة ضد الجليليين ، وقد كتب الثوار إلى الباب العالي يلتمسون منه المصادقة على تولية قاسم العمري حكم الموصل فوافق الباب العالي على ذلك وصدر الفرمان السلطاني بتوجيه ولاية الموصل إليه ، ولكن داوود باشا لم يكن مقتنعا بهذا التعيين بيد أنه اضطر إلى القبول بالأمر الواقع ، ولا شك أن تولية قاسم العمري كانت من الخطوات الأولى التي اتخذها السلطان محمود الثاني للقضاء على العصبيات والأسر الحاكمة والعمل على تطبيق النظام المركزي المباشر ، وحين قرر السلطان القضاء على الحكم المملوكي استعان بقاسم باشا العمري الذي زحف على رأس طليعة من الجيش العثماني نحو بغداد ولمساعدة القائد علي رضا باشا في خلع داوود باشا ، وخلال عملية اقتحام المدينة لقي قاسم العمري مصرعه .

حاول يحيى باشا الجليلي وكان منفيا في حلب منذ سنة ١٨٢٨ العودة إلى حكم الموصل بعد أن سمع بمصرع قاسم العمري فتحالف مع

صفوك شيخ عشائر شمر الجربا وألف قوة عشائرية قوامها أربعة ألاف مقاتل واحتل الموصل سنة ١٨٣٢ وقيل إنه استولى عليها بأمر من إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر الذي كان يعمل على ضم العراق والشام لتكوين دولة عربية موحدة ، إلا ان علي رضا باشا تحرك سريعا وكلف القائد العثماني محمد اينجة بيرقدار بمهمة إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على الموصل والقضاء نهائيا على الأسرة الجليلية ، كما حرض عشائر عنزة للعمل ضد التحالف بين يحيى باشا الجليلي والشيخ صفوك ، وبسهولة كبيرة استطاع محمد اينجة بيرقدار من دخول الموصل والقبض على يحيى باشا الجليلي وإرساله إلى استانبول ، ومما ساعد بيرقدار على تحقيق مهمته أن اسرة آل عبد الجليل فقدت شعبيتها في المدينة ولم يعد الأهالي يرغبون في استمرارها في الحكم ، كما إن الجيش المصري لم يكن متفرغا لجبهة العراق آنذاك وإنما كان مشغولا بالتقدم نحو الأناضول .

## آل ظاهر العمر في فلسطين

وفي فلسطين ظهرت بضعة قوى محلية إلا ان من أبرز هذه القوى الشيخ ظاهر العمر ، فقد استطاع هذا الشيخ البدوي سنة ١٧٣٧ وكان يعمل حاكما على صفد أن يوسع ممتلكاته وذلك بضم طبرية ونابلس ويافا والناصرة ، كما استولى على عكا سنة ١٧٥٠ وجعلها عاصمة له واحتل مرفأ صيدا سنة ١٧٧٠ بعد ان تحالف مع المتاولة في جبل عامل وهم

عشيرة كبيرة في لبنان . وقد صرف النظر عن مدينة بيروت أن أميرها منصور الشهابي استرضاه بالمال .

إن مما ساعد ظاهر العمر على تحقيق طموحه في الاستقلال عن الدولة العثمانية تحالفه مع علي بك الكبير حاكم مصر المملوكي الذي لم يتوان بعد احتلال الشام عن تقديم المساعدات العسكرية لظاهر العمر ، كما نال مساعدة الأسطول الروسي الذي وصلت بعض قطعاته سواحل الشام في ١٧٧٣ .

## آل معن في لبنان

أشرنا فيما سبق إلى أن السلطان العثماني سليم الأول أبقى سنة ٥١٦ الأمير فخر الدين المعني الأول في إقطاعية الشوف في جبل لبنان ، واعترف بكل امتيازاته المتوارثة في إدارة منطقته وفق تقاليد أجداده التي ترجع إلى عهد المماليك ، وقد اشترط السلطان سليم على الأمير فخر الدين دفع جزء من الضرائب التي يحصلها لخزينة الدولة ولم يكن هذا الوضع استثنائيا في جبل لبنان كما يشير المؤرخ وجيه كوثراني ، وإنما كان سياسة تقليدية سارت عليه الدولة العثمانية في مراحل سيطرتها الأولى على الوطن العربي موجودة وخاصة في المناطق الجبلية المعقدة فقد ارتكزت الإدارة العثمانية إلى الزعامات المحلية التقليدية المتعاونة معها في بعض المناطق العربية ولم تحاول الغاءها ، وإنما حافظت على وجودها مستكينة بأن قوة الدولة ضمن الإطار العثماني ، إلا ان هذه الزعامات المحلية بدأت تتحرك

منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر حين ضعفت الدولة العثمانية وانشغلت بحروبها الطويلة على الجبهتين الإيرانية والنمساوية ، ففي جبل لبنان سعى الأمير فخر الدين المعني الثاني المعروف بالكبير ١٥٧٢ – ١٦٣٥ إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية محاولا تأسيس دولة قوية تضم لبنان وسوريا وفلسطين

لقد استطاع امير الشوف فخر الدين المعني الثاني وكان سياسيا ماهرا أن يغدو بحق الأمير الكبير ، على مقاطعات تخطت حدودها منطقة جبل لبنان ووصلت إلى شمالي سوريا وداخل فلسطين وأبواب دمشق ، وهذا التوسع الكبير خارج إطار جبل لبنان جعل مشايخ المنطقة والبيوتات الارتسقراطية الدرزية والمارونية وغيرهما يدينون بالولاء له وأصبحوا يلتزمون بدفع الضرائب المترتبة عليهم له لقاء إداراتهم شؤون مقاطعاتهم ، كما اتصل الأمير بدولة توسكانيا الايطالية وعقد معها اتفاقية سرية سنة ١٦٠٨ تقتضي بتزويده بالمعدات والقطع البحرية ، وقد تصرف لإنشاء الحصون وتقوية جيشه الذي بلغ تعداده آنذاك ٤٠ ألف مقاتل .

إن ذلك الاتجاه الاستقلالي أدى إلى حدوث صراع شديد بين الأمير فخر الدين ووالي دمشق ، ففي سنة ١٦١٣ طلبت الدولة العثمانية من والي دمشق أحم حافظ باشا التوجه نحو جبل لبنان والقضاء على الأمير فخر الدين ، كما اوعزت إلى ولاة حلب وديار بكر وطرابلس بمؤازرة والي دمشق في مهمته ، وتألفت قوة قوامها ثلاثون ألف مقاتل ، وقد استطاع الامير

فخر الدين الصمود أمامها قرابة تسعة أسهر اضطر بعدها إلى مغادرة حلب إلى إيطاليا وبعد خمس سنوات صدر العفو عنه ، حين تسلم العرش العثماني عثمان الثاني ١٦١٨ – ١٦٢٢ فعاد إلى لبنان ، ولم يكد يسترجع ممتلكاته حتى صار يعني بها ، ووضع خطة لتطويرها اقتصاديا ويشجع التجارة الخارجية واندفع في تحديث البلاد وأرسل مجموعة من الشباب للدراسة في إيطاليا ، ثم أعلن التمرد على الدولة العثمانية سنة ١٦٣٥ إلا انه فشل وتمكن العثمانيون من شنقه .

لقد تعاون الأمير بشير الشهابي مع محمد علي إبان سيطرته على بلاد الشام سنة ١٨٢١ قد التحق مع إبراهيم باشا بن محمد الف مقاتل لبناني احتل بهم طرابلس كما اشترك الشهابيون في قمع العديد من الانتفاضات التي حدثت ضد إبراهيم باشا في عكا وصافيتا وجبال النصيرية سنة ١٨٣٢ .إن انهيار حكم محمد علي باشا في بلاد الشام كان إيذانا بنهاية الأمير بشير الشهابي ، ففي ١٠ تشرين الأول ١٨٤٠ هزمت القوات المصرية في معركة " بحر صاف " بالمتن ولم يمض يومان حتى غادر الأمير بشير الشهابي بيت الدين إلى صيدا ومن ثم إلى منفاه في مالطا .

وفي مؤتمر لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠ الذي كرس للبحث في مصير الحكم المصري في الشام ، وحضره كل من ممثلي الدولة العثمانية والنمساوية والروسية والانكليزية ، وقع الاختيار على الأمير بشير الشهابي الثالث ، ليكون حاكما على لبنان وفي ٣ أيلول ١٨٤٠ صدر فرمان سلطاني

بذلك ، وكان الأمير بشير الثالث معروفا بالضعف وعدم الكفاءة ، لذلك استخدم لتنفيذ سياسة الدول الأوربية الكبرى ومصالحها في لبنان ، وقد مهدت تلك الظروف إلى إفساح المجال للدولة الأجنبية للتدخل في شؤون البلاد الداخلية وإثارة النعرات الطائفية بين الموارنة والدروز .

## آل العظم في سوريا

أما في سوريا فقد حدث تطور مشابه لما حدث في بعض الولايات العربية الأخرى ، إذ اشتد الصراع بين الانكشارية والقوى المحلية وكان من الخطر استمرار هذا الصراع والفوضى الناجمة عنه ، لأن ذلك يسيء إلى السلطان العثماني ، حيث عن دمشق كانت آنذاك مركزا لتجمع قوافل التجار والحجاج والتي كثيرا ما تتعرض لسلب عشائر بادية الشام ، لذلك عزل السلطان الوالي المسؤول عن تلك الفوضى وهو نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام بين ١٧٠٩ ١٧١٥ ، وقد حكم دمشق بعد نصوح باشا ولاة عديدون لم يشتهر أي منهم وكان آخرهم عثمان باشا الذي حكم بين ١٧٢٣ و١٧٢٥ وقد عرف بالظلم ومارس أعوانه الابتزاز فنقم عليه الدمشقيون واضطر السلطان إلى عزله في أواخر آذار ١٧٢٥ وتعيين إسماعيل باشا العظم مكانه في آذار ١٧٢٥ وكان معروفا بالعدل فأحبه الناس ، وقد استطاع السيطرة على دمشق مستعينا بجنده من المغاربة العرب والمماليك البوشناق ، وأسرة العظم عربية من قبيلة معن هاجر أحد رجالها واسمه عزيم إلى قونية في الأناضول ومنها قدم أحفاده إلى سوريا بعد استيلاء

السلطان سليم عليها ، فكان منهم ولاة ومتصرفون ، وقد احرزت الكثير من الأراضي والمزارع ووسعت أوقافها الذرية والخيرية في دمشق وغيرها من المدن السورية ، هذا وقد استمرت أسرة آل العظم في حكم دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ومما ساعدها على ذلك حاجة الدولة إليها للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته الاستقلالية .

## الغزو الفرنسي لسوريا

قرر بونابرت غزو سوريا بعد أن علم بتحرك الجيوش العثمانية نحو مصر وذلك في شباط ١٧٩٩م ، وكان يهدف من وراء حملته على الشام إحراج موقف الاسطول البريطاني في البحر المتوسط ، وللحيلولة دون حصوله على المؤن والتجهيزات من الموانئ السورية ، وقد سقطت العريش بيده والرملة وغزة ويافا ، وفي آذار ضرب الحصار حول عكا واستمر كذلك ثلاثة أشهر ثم اضطر إلى الانسحاب أمام حصونها المنيعة ومقاومة أهلها الباسلة ، وانتشار الطاعون بين جنوده ومساعدة الاسطول البريطاني لها بقيادة سدني سمث ، وقد وقع بأيدي الفرنسيين خلال الحصار ثلاثة آلاف أسير أمر بونابرت بإعدامهم جميعا .

وبعد عودته إلى مصر قرر مغادرتها إلى فرنسا ، بعد أن سمع بسخط الجيش الفرنسي على حكومة الإدارة وفشلها في مواجهة الاضطرابات الداخلية ، وتألب القوى الأوربية عليها ، وقد ترك بونابرت للجنرال كليبر أمور قيادة الحملة في مصر .

# الفصل الخامس

# الدولة العثمانية ومحمدعلي

أثارت سياسة محمد علي باشا في مصر مخاوف السلطان العثماني محمـــود الثـــاني ( ١٨٠٨ – ١٨٢٩ ) وسخطه ، لأنها محفزة لسكان ولايات الدولة على الأخذ بوسائل التقدم ، ومشجعة على الاستقلال بولاياتهم ، لهذا أظهر السلطان عدم رضاه من سياسة محمد علي باشا ، غير أن محمد علي باشا استمر في تحقيق سياسته التي أملتها عليه ظروف مصر وتطلعاته الشخصية وطبعتها بطابع الحرص على صفوف العرب ، وقد تجلت هذه السياسة في قلق حكومة مصر من تطور العمليات العسكرية البريطانية ضد إمارات الخليج العربي والبحرين بوجه خاص ، ولشدة ما أبدته الحكومة المصرية من حرص على المصلحة العربية وتمسك بحقوق العرب اعتقد الدبلوماسيون الأوربيون أن السياسة المصرية تهدف إلى إحياء الدولة العربية القومية الموحدة ، ولقد انعكس هذا الاعتقاد في الكثير من الوثائق والتقارير التي أعدها أولئك الدبلوماسيون وقدموها إلى حكوماتهم ، ويبدو أن أحاديث وتصريحات محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا تشكل الأساس الذي ارتكزت عليه تلك المعتقدات ، فقد

أوضح محمد علي باشا أهدافه بصراحة في حديث له مع الجنرال الفرنسي بواييه ١٨٢٥ م قائلا : (( إنه سيعمد إلى تجنيد كتائب جديدة في جيشه ... ثم يضع يده على أراضي الشام ... ولا يقف بهذا الجيش إلا على ضفاف دجلة والفرات )) مضيفا أنه (( سيستولي على بلاد اليمن ومضيق باب المندب ويحتل ميناء سواكن على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وإن جيوشه ستملأ الجزء الاوسط في بلاد العرب وترفع أعلامها في سماء القطيف عند الخليج العربي .

لقد بعث الجنرال بواييه إلى باريس بلك الأفكار التي صارحه بها محمد علي وهي أفكار تتوافق مع ما كان يقوله ولده إبراهيم باشا حين أجاب على سؤال يتعلق بالمدى الذي ستصل اليه جيوشه قائلا : (( إلى حدود البلاد التي لا يتكلم فيها الناس اللغة العربية )) .

أما بالمرستون وزير خارجية بريطانيا فقد كتب إلى حكومته في ربيع سنة ١٨٣٣ يقول : (( إن الهدف الحقيقي لوالي مصر هو تاسيس مملكة عربية تضم جميع البلدان الناطقة باللغة العربية )) وقد ذكر المبعوث النمساوي في تقرير له إلى حكومته في ١٧ ايار ١٨٣٣ أنه خلال مقابلته لمحمد علي باشا في الاسكندرية اطلع على الخطوط العامة لسياسة محمد علي باشا وتتلخص بإقامة امبراطورية عربية تشمل مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية والشام والعراق .

إن تفكير محمد علي باشا ببناء دولة حديثة قاده بالضرورة إلى تتبع الارتباطات الستراتيجية لمصر بالاطراف المحيطة بها بمجملها عربية وأبرزها :

١- ارتباط مركز مصر ( الستراتيجي ) بالسودان وبنهر النيل واحتمال تهديد هذا المركز في حالة سيطرة دولة أخرى على السودان وتحكمها في نهر النيل .

٢- وقوع مصر على البحر الاحمر والخوف من امتداد النفوذ البريطاني إليه .

٣- أهمية بلاد الشام والشاطئ الشرقي للبحر المتوسط ، ولكونها جبهة مصر الشمالية وممر الخطر العثماني إلى مصر .

كان محمد علي باشا يرى في بريطانيا الخطر الذي يهدده من جهتي السودان والبحر الأحمر والجزيرة العربية ، كما أن بريطانيا بقيت تتحين الفرص لاحتلال مصر واستعمارها بعد أن أخافها نشاط محمد علي باشا في نقل مظاهر التطور الحضاري الاوربي إلى مصر وتفكيره في تحويل الوطن العربي إلى مركز قوة لما يتمتع به من مزايا ستراتيجية واقتصادية وحضارية

في البدء حاول محمد علي باشا التوجه نحو المغرب العربي عبر طرابلس وتونس حتى الجزائر ومراكش ، ويبدو أن فرنسا شجعته على ذلك ، إذ اقترح عليه قنصلها دروفتي أن (( يولي وجهه شطر افريقيا الشمالية

فيفتحها وينشئ فيها امبراطوية كبيرة تمتد على طول شواطئ المتوسط الجنوبية الغربية ، من مصر إلى المحيط الاطلسي )) وعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله : (( ولم تكن فرنسا ولا شك تبغي بذلك مصلحة محمد علي باشا فقط بل كانت تبغي مصلحتها كذلك ، إذ كانت تطمع في مشاركته في هذه الحملة وبالتالي في نتائجها السياسية والاقتصادية حيث يمنح محمد علي باشا فرنسا امتيازات في امبراطوريته العتيدة )) لقد رفض محمد علي باشا الفكرة الفرنسية لأنه أراد أن تكون حملته عربية اسلامية بحتة وفضلا أن يعود إلى قراره الأساس وهو التوجه أولا نحو المشرق العربي .

١- نشاطه في الجزيرة العربية والخليج العربي :

بدأ محمد علي باشا بالجزيرة العربية مستغلا استغاثة السلطان محمود الثاني به لمساعدته في القضاء على حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١٧٠٣ – ١٧٩٢ ) المتحالف مع أمراء الدرعية من آل سعود سنة ١٧٤٥ بعد أن انتشرت في نجد في ضم الإحساء والبحرين وامتدت إلى الحجاز واليمن وعمان ومسقط ، وهددت البصرة وبغداد وتمكنت من إقامة الدولة السعودية الأولى ( ١٧٤٥ – ١٨١٨ ) وقد عجزت القوات العثمانية عن قمعها والواقع أن محمد علي باشا كان مدفوعا إلى ذلك بقلقه من تزايد النفوذ البريطاني ، وقد استطاع إبراهيم باشا احتلال الدرعية عاصمة الوهابيين بعد حصار دام ستة أشهر في أيلول سنة ١٨١٨ وأخمد بذلك الحركة التي كانت تستهدف كما سنرى العودة بالإسلام إلى نقائه الأول

والعمل على إقامة كيان سياسي عربي الجزيرة العربية ، ثم تحركت القوات المصرية بقيادة خليل باشا لتقضي على فلول الوهابيين في عسير ومنطقة الساحل الشمالي لليمن وقد تمكنت هذه القوات من الاستيلاء على اليمن وإعادتها إلى حكم الأئمة الزيديين في صنعاء بعد أن طردهم الوهابيون عنها .اندفعت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا سنة ١٨١٩م نحو سواحل الخليج العربي ونجحت في اخضاع الاحساء ولقد أبدى الانكليز في البدء رغبة كبيرة في إيجاد صيغة للتعاون مع إبراهيم باشا ، وكانوا يهدفون من ذلك الاستعانة بقواته في كسر شوكة سكان الساحل العماني الذين زاد اعتناقهم للدعوة الوهابية غير انه اضطر إلى الانسحاب في أواخر تموز ١٨١٩م بضغط وتأثير من السلطات العثمانية في العراق التي كانت ترى في وجود المصريين في منطقة الاحساء خطرا على وجودها في العراق ، وقد انتقد المؤرخون إبراهيم باشا لانسحابه السريع من شواطئ الخليج العربي ، معتقدين أنه أخطأ كثيرا في موقفه خاصة وإن تلك السواحل كانت تعاني آنذاك صراعا استعماريا وضغطا أجنبيا وخاصة من جانب بريطانيا .

ولربما شعر المصريون بهذا الخطأ الستراتيجي فعادوا إلى منطقة الجزيرة العربية في أعقاب انتصاراتهم في السودان والشام ، ففي سنة ١٨٣٦ وجه محمد علي قوة جديدة إلى اليمن بقيادة إبراهيم يكن باشا الذي عينه (( سر عسكر اليمن )) وكان يسانده في تحركه الشريف عون شريف مكة ، وقد احتمل المصريون في أثناء زحفهم إلى عسير والمنطقة الممتدة

إلى عسير والمنطقة الممتدة على طول الساحل اليمني حتى الحديدة مشاق كبيرة نتيجة لوعورة الطرق وسوء الطقس وقلة الماء بيد أنهم احتلوا معظم الثغور اليمنية وبعض المواقع الداخلية في تهامة وأصبح إبراهيم يكن باشا واليا على اليمن من قبل محمد علي باشا متخذا من الحديدة مركزا لإدارته ، وقد أقام المصريون في اليمن إدارة منظمة أتاحت استقرارا نسبيا للبلاد لم تنعم به من قبل ، كما أنهم اكتسبوا أعوانا كثيرين من اليمنيين وفي مقدمتهم إمام صنعاء الزيدي كما استلموا رسائل من حضر موت يطالب أصحابها بالانضمام إلى الإدارة المصرية وقد استمرا حالة الهدوء النسبي في اليمن في ظل الادارة المصرية في الفترة الممتدة بين سنتي ١٨٣٦ – ١٨٤٠ ولم يتخللها سوى عمليات الغزو التي كانت تشنها بعض القبائل اليمينية .

وفي ما يتعلق بنجد فقد مهد الافراج عن أحد الامراء السعوديين الموالين لمحمد علي باشا وهو خالد بن سعود السبيل للتغلغل في الاراضي النجدية وإعادة المناطق التي كانت تابعة للدولة السعودية الاولى ومنها القصيم وعنيزة وبريدة وحائل ثم الرياض ، و في أواخر أيلول ١٨٣٨ تقدمت القوات المصرية ترافقها قوات الأمير خالد بن سعود شرقا صوب منطقة الاحساء وقد اضطر أميرها فيصل بن تركي إلى الاستسلام بعد أن تراجع إلى أواخر معقل لديه عند مدينة ( دلم ) فنقل إلى القاهرة في كانون الأول سنة ١٨٣٨ .

أدركت السلطات العثمانية في الطرق مدى الاخطار التي قد تتهددها من جراء زحف القوات المصرية في أراضي شبه الجزيرة العربية والتي تجيء بمثابة فتح جبهة جديدة للقتال ضد الدولة العثمانية وهي جبهة العراق وخيل للعثمانيين أن هدف محمد علي هو احتلال العراق عن طريق قواته في الشام من الشمال ، وبقوات شبه الجزيرة العربية من الجنوب .

لذلك أوعزوا لواليهم في بغداد علي رضا باشا بالاتصال بالشيوخ العرب في مناطق نجد والاحساء وعسير وغيرها لتحريضهم ضد المصريين وإشعال نار الثورة في الخطوط الخلفية للقوات المصرية وإيقاف زحفها في الجبهة الشرقية .

ركز المصريون نشاطهم عقب استقرار قواتهم في منطقة الاحساء حول البحرين ، إذ اعتبروها من أبرز المواقع التي ينبغي وضع أقدامهم عليها في منطقة الخليج العربي ، فعن طريقها يتمكنون من اكتساب ميزة التحرك السريع صوب اجزاء الخليج العربي وجنوبا صوب إمارات ساحل عمان وشمالا صوب العراق .

ولقد استطاع القائد المصري خورشيد باشا عقد اتفاق في الاسبوع الاخير من آذار سنة ١٨٣٩ مع شيخ البحرين عبد الله بن احمد آل خليفة تم بموجب وضع البحرين تحت الاشراف المصري والتزام شيخها بتقديم المساعدات للسفن المصرية في منطقة الخليج العربي وقبول وكيل معتمد من قبل خورشيد في البحرين ضمانا لتنفيذ شروط الاتفاق الموقع بينها

ومنعا لنجاح عمليات الضغوط التي كان يتعرض لها شيخ البحرين من الانكليز والعثمانيين ، كما تعهد شيخ البحرين بتسليم السلطات المصرية زكاة سنوية مقدارها ثلاثة آلاف ريال ، مما يشير إلى نوع التبعية التي ربطت البحرين بحكومة محمد علي بمقتضى هذا الاتفاق .

ولم تكن البحرين وحدها هي مجال نشاط محمد علي في منطقة الخليج العربي ، فلقد تعرضت إمارات الساحل العماني ، ومنها الشارقة وأبو ظبي ودبي وأم القيوين ورأس الخيمة لمثل هذا النشاط ، وساد فيها إحساس قوي بوصول قوات خورشيد باشا إليها عقب استقرارها في منطقتي الاحساء والقطيف ، وفي أواخر ١٨٣٩ وصل الشارقة سعد بن مطلك ، بعد أن فوضه خورشيد باشا بالتوجه إلى امارات الساحل العماني والحصول من شيوخها على تعهد بالخضوع للسيطرة المصرية ، ولكن الانكليز سرعان ما أرسلوا الميجر هنيل المقيم البريطاني في الخليج العربي إلى الساحل العماني للحصول على تعهدات مكتوبة من شيوخه بوجوب التعاون مع السلطات البريطانية في مقاومة زحف خورشيد باشا المحتمل ، ومع هذا فلم يكن هنيل متفائلا ، فقد كان عديم الثقة بوفاء أولئك الشيوخ لتعهداتهم وذلك لمزاولة خورشيد باشا نفوذا غير عادي عليهم – لذلك أوصى هنيل رؤساءه بوجوب التقدم باحتجاجات جادة وقاطعة إلى المسؤولين في مصر ، وفرض حصار بريطاني على كل من القطيف والعقير وسيهات لمواجهة التوسع المصري في سواحل الخليج العربي ، إذ لم تقتصر تحركات خورشيد باشا على الساحل

العماني ، وإنما امتدت صوب سلطة مسقط التي علم هنيل بأن مبعوثا من خورشيد باشا ذهب إلى هناك في الاسبوع الأول من تموز سنة ١٨٣٩ وهو مزود برسائل إلى السيد سعيد سلطان مسقط تطالبه بتقديم مساعداته لمحمد علي ، وإعادة دفع الزكاة التي كان يدفعها من قبل الوهابيين وتبلغه في الوقت نفسه باستعداد القوات المصرية لحمايته ومساعدته ضد خصومه .

وإذا كانت أنظار خورشيد باشا قد اتجهت نحو الأجزاء الوسطى والجنوبية ومنها الكويت والمحمرة للحصول على المساعدات من شيوخها وضمان ولائهم للحكم المصري ، وقد أحرز مبعوثوه نجاحا كبيرا في مهمتهم ، مما أقلق السلطات البريطانية التي أرسلت الليفتانت ادموندر المقيم البريطاني المساعد في منطقة الخليج في ٣٠ تشرين الأول ١٨٣٩ لمقابلة شيخ الكويت جابر الصباح والتعرف منه على تحركات مبعوث خورشيد باشا والتباحث معه بشأن إقامة خط بريدي بريطاني عبر الصحراء من الكويت إلى كل من البصرة وبغداد ودمشق وحلب ، وتشير الوثائق البريطانية إلى ان الشيخ جابر الصباح لم يرحب بالمبعوث البريطاني كما ينبغي وذلك رغبة منه في التمسك بصداقة محمد علي وإعجابه بالنجاح الذي حققته القوات المصرية في الخليج العربي ، وتضيف أن مهمة المبعوثين المصريين إلى الكويت والمحمرة لم تقتصر على تحصيل المؤن والامدادات ، وإنما كانت ستارا يختفي وراءها أولئك المبعوثين لكي تسهل لهم مراقبة النشاط العثماني في البصرة وخدمة أهداف المصريين الرامية إلى ضم العراق ، خصوصا بعد

ما أخذ موقف العثمانيين هناك بعد معركة نزيب في ٢٤ حزيران ١٨٣٩ يتطور من سيء إلى أسوء بشكل دفع خورشيد باشا إلى الإدراك بأن الوقت قد حان لإخراج العثمانيين من العراق ، إذ ان زعماء عشائر جنوب العراق وخاصة عشائر المنتفك أعربوا عن رغبتهم هم وأهل البصرة في التخلص من السيطرة العثمانية والانضمام لدولة محمد علي إلا ان الامور لم تلبث ان تطورت بشكل سريع في أعقاب النجاح الذي أحرزه الانكليز في تأليب الدول الكبرى ضد محمد علي على نحو أخذت آثاره ونتائجه في الأفق كما سنرى .

لذلك فقد بعث خورشيد باشا في نهاية آب سنة ١٨٤٠ برسالة إلى هنيل في جزيرة خرك يبلغه فيها أنه ليست لديه نية التحرك من قاعدته عند ( ثرمده ) لحين تلقيه أوامر جديدة من مصر إذ أن محمد علي كان مشغولا بأخبار تحركات جيشه في الشام والأناضول ، ولهذا فقد أجل قراره بضم العراق إلى دولته ومن جهة أخرى فإن الوضع المتدهور الذي بدأت تعيشه القوات المصرية في الشام ، أدى إلى سحب جزء من القوات المرافقة لخورشيد باشا من نجد وتوجيها للدفاع المحتمل من مصر والشام ومن ثم أخذت تلك القوات تتوافد من مواقعها ، ففي أواخر حزيران ١٨٤٠ كان ثلاثة عشر فوجا من القوات المصرية النظامية في شبه الجزيرة العربية تتقدم صوب القاهرة وترك خورشيد باشا مكة والمدينة في أيدي القوات غير النظامية الخاضعة لمحمد بن عون شريف مكة الذي عينه محمد علي حاكما على الحجاز ، كما ترك الامير خالد بن سعود على حكم نجد برفقة بعض

قواته ، في حين اسند حكم الاحساء إلى أحمد بن مبارك من بني خالد ، وهو من حكامها السابقين المخلصين للمصريين .

ثم لم تلبث هزيمة الجيش المصري في بلاد الشام في تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ أن وضعت نهاية لمشروع محمد علي وانتصارات قواته في الجزيرة العربية وجهودها في منطقة الخليج العربي ، فاهتز نفوذ الامير خالد بن سعود وأصبح عرضة للانهيار بعد انتصار الأمير السعودي الموالي للعثمانيين فيصل بن تركي الذي أتاحت عودته الفرصة للنفوذ العثماني بالتغلغل في شبه الجزيرة العربية ، كما أتاح الخلاف الذي أعقب وفاته بين أولاده الفرصة للعثمانيين للوصول إلى منطقة الخليج وإقامة وجود عثماني فيها على امتداد السواحل العربية استمر حتى ١٩١٣ ، ولم يعد بمقدور المصريين الاستمرار في حكم اليمن بعد احتلال البريطانيين لعدن سنة ١٨٣٩ فانسحبوا منه لتشدد الدولة العثمانية من قبضتها عليه

# الفصل السادس

## الإصلاحات العثمانية العسكرية بالمشرق

شهدت الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الثامن عشر محاولات

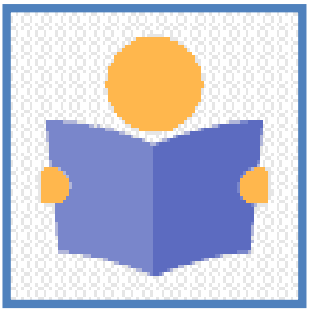

عديدة لإصلاح نظمها ومؤسساتها الإدارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق الأسس والأساليب الغربية الحديثة ، وكان لتلك المحاولات تأثيرها وانعكاساتها في الوطن العربي

أشرنا في ما سبق إلى تدهور نظم الحكم العثمانية وعدم قدرتها على استيعاب التطورات الحديثة التي شملت مجالات الحياة المختلفة في أوربا وخاصة في النواحي العسكرية ، وقد اتضح ذلك في سلسلة الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية نتيجة تمسكها بتقاليدها القديمة ، وتكنيكها الحربي القديم ، فاضطرت إزاء ذلك إلى التوقيع على معاهدات مهينة ، ومنها معاهدة كارلوفتز سنة ١٦٩٩ التي سلمت بها المجر إلى النمسا ، معاهدة بساروفتز سنة ١٧١٧ التي فقدت بها جزءا مهما من البلقان ، ومعاهدة كوجك كينارجي التي أعقبت هزيمتها أمام روسيا سنة ١٧٧٤ ومعاهدة ياسي ١٧٩١ التي ادخلتها أمام روسيا وقد انكشف ضعفها كذلك في عدم قدرتها

على مواجهة الغزو الفرنسي لمصر وفلسطين وسوريا ١٧٩٨ – ١٨٠١ ، وقد اتضحت علامات الانحطاط في تدهور النظام الاقتصادي ، وفساد الادارة الحكومية وتدخل الحريم في إدارة أمور الدولة ، واستمرار الانتفاضات في معظم ولايات الدولة العثمانية .

لذلك فقد بدأ بعض السلاطين ورجال السياسة والمثقفين المتنورين المتأثرين بالحضارة الأوربية الحديثة يبحثون عن علاج يوقف تدهور الدولة ، ويعيد إليها حيويتها ونتج عن ذلك حركة لإصلاح نظم الحكم والادارة العثمانية سميت منذ سنة ١٨٣٩ تقريبا باسم التنظيمات وامتدت كما يرى بعض المؤرخين إلى سنة ١٩٠٨ حين أعيد العمل ثانية بالدستور .

انقسم دعاة الاصلاح في الدولة العثمانية إلى فريقين ، ذهب كل منهما مذهبه في سبل الاصلاح ، فالفريق الأول يرى أن العلاج يكمن في تطبيق الانظمة الاسلامية والتقاليد العثمانية الأصيلة ، ومن هؤلاء ( كجي بك ) الذي كان يعتقد بأن سبب الاضمحلال العثماني هو التفريط في سنن الأجداد الأولين ، ومن ثم اتجهت أفكار هذا الفريق وجهة سلفية ، لقد كان هؤلاء يرون أن أجدادهم حققوا الانتصارات حين كانوا (( يعيشون في الإسلام )) ويذهبون إلى أنمه السبيل للعز والعظمة والرفعة ، والسبب الوحيد للمصائب التي نزلت بهم هو التفريط في شعائر الاسلام والانصراف إلى الدنيا والاسترسال مع الشهوات ، وقد اهاب ( كجي بك ) بالاتراك إلى الارتداد إلى النظم العثمانية القديمة والاعتصام بها ، وأكد لمواطنيه أنهم مفلحون إن

عجلوا بهذه الرجعة إلى أنظمة محمد الفاتح وسليمان القانوني ، ولقد اخذ بوجهة النظر هذه بعض السياسيين من أبناء أسرة كوبرلي ، وهم ألبانيو الأصل ، أولهم كوبرلي محمد الذي اختير لمنصب الصدارة العظمى سنة ١٦٥٦ ثم ابنه وخليفتاه في الصدارة أحمد ثم أخوه مصطفى ، وقد انتعشت الدولة إبان قيادتهم لها ، ولكنها عادت بعد ذلك فاسترسلت في نومها العميق .

أما الفريق الثاني ، فقد ارتأى أن الاصلاح في الدولة العثمانية يستلزم (( اقتباس النظم الأوربية واستلهامها )) ولقد أدرك هؤلاء أن القوة الاوربية لا تقاوم بالارتداد إلى الاسلام الأول أو الاعتصام بالأساليب العثمانية الأولى ، بل السير في الطريق الذي أوصل أوربا من الضعف إلى القوة . ومن الهزيمة إلى النصر ، ويظهر أن نجاح الأقطار الأوربية آنذاك في الأمور العسكرية وفي تطوير أنظمتها الاقتصادية واندفاعاتها في سبل النهضة الشاملة بسرعة متزايدة رجح كفة الفريق الثاني ، وعليه فقد صارت حركة الاصلاح تستهدف تطبيق الأنظمة الاوربية الحديثة في مجالات الحياة المختلفة مع عدم التفريط بأحكام الشريعة الاسلامية .

وكانت وراء حركة الاصلاح العثمانية التي ابتدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عوامل عديدة ، فمن المؤرخين من يرى أن الضغط الاستعماري الاوربية على الدولة العثمانية هو السبب الذي دفع الحكومة العثمانية إلى أن تصلح من شأنها ، في حين ينكر آخرون ذلك ، ويرون أن

حركة الاصلاح كانت من الداخل ، فالطبقة البرجوازية الناشئة في استانبول بدأت ، بالرغم من ضعفها آنذاك تساند أي اتجاه إصلاحي يسير نحو التخلص من الأوضاع الاقطاعية المتخلفة السائدة في الدولة العثمانية .

وبدأت تقف وراء الحكومة المركزية في إعادة سيطرتها المباشرة على بعض الولايات التي تمتعت ردحا من الزمن بالاستقلال وخلق هيكل جديد من الإدارة والقوانين المدنية ، وقد رحبت السلطة المركزية العثمانية بتأييد الطبقة البرجوازية في حركاتها الإصلاحية لأن هدم الأوضاع البالية سيدعم مركزية السلطة ، ومما يلحظ أن هذا شبيه بما حدث في اوربا نفسها في القرنين السادس عشر والسابع عشر من تعاون الطبقة البرجوازية في غرب أوربا مع النظم الملكية لهدم الإقطاع وإقامة ملكية مطلقة .

أ- الجيش :

اقتصرت الاصلاحات الأولى على الجيش ، فالدولة العثمانية عسكرية الطابع منذ نشأتها ، كما ان المؤسسة العسكرية القديمة أصبحت قوة رجعية مسيطرة في الدولة تشل الجهود الرامية إلى إصلاح بنية الدولة ، وهي المسؤولة عن الهزائم المتكررة التي لحقت بالدولة طيلة القرن الثامن عشر ، وقد ظهر للعيان تفوق النظم الأوربية في شؤون الجيش بآثاره المادية ، الأمر الذي جعل الاصلاح العسكري يبدو هدفا مركزيا فشؤون الجيش كانت بمثابة المحور الأساس لجميع شؤون الدولة ، لذلك فقد بدأت حركات الاقتباس والاصلاح في الشؤون العسكرية ثم امتدت بعد ذلك إلى الجوانب

الادارية والمالية والقضائية والتعليمية ، ونظرا لأهمية الفترة التي سبقت التنظيمات فمن المفيد الاشارة إلى أبرز التطورات الاصلاحية التي تمت فيها

يرجع البعض من المؤرخين إصلاح الجيش العثماني إلى عهد السلطان مصطفى الثالث ( ١٧٥٧ – ١٧٧٤ ) ذلك أنه نظم البحرية والمدفعية وفقا للأساليب والاسلحة الأوربية مستعينا بعدد من الخبراء والضباط الأوربيين وفي مقدمتهم البارون الفرنسي دي توت ، أما الانكشارية فلم يتعرض لهم آنذاك لقوتهم وقدرتهم على مقاومة الاصلاح ورفضه .

وجاء قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وانتصاراتها في الميادين الأوربية ليؤكد ضرورة الاصلاح ، خاصة بعد غزو الفرنسيين لمصر سنة ١٧٩٨ وهي ولايات عثمانية ، إذ رأى العثمانيون تفوق الجيوش الفرنسية على جيوشهم وجيوش المماليك معا ، ومما يلحظ أن طليعة الأفكار التي وصلت العاصمة العثمانية في بدء حركة الاصلاحات اشتملت على مبادئ الثورة الفرنسية المتمثلة بالحرية والديمقراطية والمساواة ، وقد انتقلت هذه المبادئ إلى الولايات العثمانية بعاملين : أحدهما البعثات العسكرية الفرنسية التي وصلت إلى استانبول لتساعد في تجديد الجيش العثماني ، فبعد أن تعلم الضباط العثمانيون اللغة الفرنسية لم يقتصروا على دراسة العلوم العسكرية الفرنسية فحسب ، بل صاروا يطالعون الكتب السياسية كذلك ، أما العامل الثاني فيتمثل بالبعثات الدبلوماسية سواء منها الأوربية المقيمة في استانبول والعثمانية المقيمة في عواصم أوربا ولاسيما في باريس .

لقد كان سليم الثالث ( ١٧٩٠ – ١٨٠٧ ) أول سلطان عثماني يطلق عليه لقب ( مصلح ) في فترة ما قبل التنظيمات ، وفي عهده ظهرت ردود الفعل العثمانية إزاء قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وسقوط آل بوربون وغزو فرنسا لمصر سنة ١٧٩٨ فلقد دعا السلطان سليم الثالث عددا من قادة الفكر والسياسة في الدولة العثمانية لمعرفة آرائهم حول كيفية معالجة عوامل الضعف في الدولة ، فأكدوا جميعا ضرورة الإصلاح العسكري وفي سنة ١٧٩٢ صدرت سلسلة من التعليمات والأنظمة والتشريعات الجديدة سميت بمجموعها ( قانون نامة ) أو ( نظامات ) وقد أحدث صندوقا ماليا لتغطية نفقات المؤسسات الجديدة سمي ( إيراد جديد ) يقوم على فرض ضرائب على ملاكين لم يؤدوا واجباتهم العسكرية ، كما اتجهت رغبته لإصلاح الجيش والبحرية ، لذلك أسس عدد من المدارس العسكرية تدرس فيها اللغة الفرنسية مستعينا بأستاذة ومدربين أوربيين أكثرهم من الفرنسيين

وكان سليم يامل من وراء عمله هذا إنشاء ( جيش جديد ) يحل بتقدم الزمن محل الجيش الانكشاري القديم الذي ضعفت قوته واضطرب نظامه ، وقد شيدت ثكنات خاصة متعددة في مدينة سكوتاري المقابلة لاستانبول لهذا الجيش الذي بدأ باثني عشر ألف جندي من المشاة وخمسة آلاف من الخيالة ، وانتقلت هذه الظاهرة إلى بعض ولايات الدولة ويذكر المؤرخون إن والي بغداد سليمان باشا الكبير استقدم ضابطا انكليزيا من الهند وعهد إليه

تنظيم الجيش الجديد ، واهتم والي مصر خورشيد باشا بهذا الأمر كذلك وشرع في إنشاء ثكنة خاصة بجيش ( النظام الجديد ) .

وقد عمل السلطان سليم الثالث على إنشاء عدد من المعاهد العالية والفنية الحديثة التي تعد الأولى من نوعها في البلاد ، ولقد أتاح قيام السلطان سليم بتأسيس سفارات عثمانية دائمة في العواصم الأوربية لعدد من الشبان الاتراك الاحتكاك بالحضارة الغربية وتعلم اللغات الأجنبية والاطلاع على الافكار الثورية المنتشرة هناك ، وقد قدر لهؤلاء الشبان أن يتقلدوا في ما بعد وظائف عالية في الدولة ويساهموا إسهاما فعالا في حركة الاصلاح .

أثبت الإصلاح العسكري فائدته في الدفاع عن عكا أمام هجوم الفرنسيين سة ١٧٩٩ وظهرت كفاية الجيش الجديد بشكل زادت معه مخاوف الانكشارية من أن يكون قوة بديلة عنهم ، فتآمروا مع بعض رجال الدين الذي كانوا يقولون ( إن التعليم العسكرية ) من الأمور التي لم يعرفها الاسلام وإن ( الفتوحات الإسلامية تمت دون ان نحتاج إلى امثال هذا التعليم ) وإن النظام الجديد بدعة وكل بدعة حرام ، وغنه من بدع الكفار والاخذ به ما هو إلا تشبيه بالكفار ، وإن مبادئ الاسلام ( أن من تشبه بقوم فهو منهم ) . وقد ألتف حول رجال الدين بعض النفعيين والوصوليين من رجال الدولة ، فأعلن الانكشارية تمردهم في آيار ١٨٠٧ ضد إصلاحات سليم الثالث وتمكنوا من محاصرة قصر السلطان وإحلال مصطفى الرابع محله ( ١٨٠٧ – ١٨٠٨ ) وبعد اشهر قليلة حدثت ثورة معاكسة إذ تحرك أنصار

النظام الجديد من قادة الجيش في الولايات العثمانية مستنكرين إجراءات القوى الرجعية في العاصمة ، فزحف مصطفى البير قدار حاكم سلسترة بقواته إلى العاصمة وخلع مصطفى الرابع ونصب الأمير محمود الثاني ( ١٨٠٨ – ١٨٣٩ ) في ٢٨ تموز سنة ١٨٠٨ ولم يكن عمره آنذاك يزيد عن ستة عشرة سنة ولقد عزم البيرقدار على إحياء النظام الجديد إلا أن أعداءه تآمروا عليه وقتلوه بعد فترة وجيزة فعادت الفوضى إلى البلاد وتوالت هزائم الجيش العثماني في الخارج .

اعتقد السلطان محمود الثاني ضرورة الاستمرار في علمية الاصلاح التي بدأت في عهد أسلافه ، إذا ما أراد أن يجعل الدولة العثمانية في مكانة مساوية لدول أوربا إلا انه وجد في الوقت نفسه أن الاصلاح العام لأحوال الدولة لا يمكن أن يتم قبل التخلص من أعداء الاصلاح وفي مقدمتهم الجيش الانكشاري ، وأول عمل إصلاحي قام به هو تحسين المدارس العسكرية الجديدة التي أسسها سليم الثالث وكانت تعنى بتدريب الضباط والجنود بالأساليب الأوربية الحديثة بغية تشكيل جيش جديد منهم ، وبمرور الزمن استعان محمود الثاني بأفراد من الجيش الجديد وبالمدفعية للقضاء على الجيش الانكشاري وإلغائه بعد ان استصدر في ١٦ حزيران سنة ١٨٢٦ فتوى شرعية من شيخ الاسلام بوجوب ( إفناء هذه الطائفة الباغية ) وخلال ساعات قليلة من صباح سوم ١٦ حزيران حصد بمدفعيته وبرصاص الأهالي وجند الجيش الجديد نحو عشرين ألفا من الانكشارية في

آت ميداني ( ميدان الخيل ) حيث كانوا مجتمعين هناك معلنين عصيانهم العسكري ، كما تشتت من بقي منهم على قيد الحياة ، وفي اليوم التالي صدر فرمان سلطاني بإلغاء الجيش الانكشاري وصدرت الأوامر إلى جميع الولايات العثمانية بالتفتيش على كل من بقي منهم وإعدامه أو نفيه إلى أطراف الدولة وقد اطلق العثمانيون على هذه الواقعة اسم ( الواقعة الخيرية ) لأنهم تفاءلوا بها خيرا أما الجيش الجديد الذي أمر السلطان محمود بإنشائه على غرار الجيوش الأوربية فقد أطلق عليه ( عساكري منصوري محمدي ) أي العساكر المحمدية المنصورة ، وسرعان ما وضعت الأنظمة لهذا الجيش وكذلك لضمان سلامته من الفوضى والاضطراب واصدر السلطان محمود الثاني أوامره بتطبيق إصلاحاته العسكرية بكل حزم في الولايات العثمانية والشروع في إرساء أسس النظام العسكري الجديد واستطاعت الدولة ان توثق من أواصر تبعية ولاياتها بواسطة الجيش النظامي الجديد بعد ان دربته ونظمته وفق الأساليب العسكرية الأوربية فقسمت الإمبراطورية إلى عدد من الدوائر العسكرية وضع في كل دائرة فيها جيش خاص بها ، ويشرف على هذه الجيوش قائد لقبه ( سر عسكر ) وهو قائد الجيش الأول عادة ، ثم أصبح بعد ذلك يحمل اسم نظار الحربية ورئيس أركان الجيش ، أما الدوائر العسكرية فهي :

١- الدائرة العسكرية الأولى : وشملت ولايات قسطموني وأنقرة وبروصة وفيها الجيش الهمايوني ( الإمبراطوري) الأول ( برنجي اوردوهمايوني ) ومقره العاصمة استانبول .

٢- الدائرة العسكرية الثانية : وفيها الجيش الهمايوني الثاني ( ايكنجي أوردو همايوني ) ومقره أدرنه .

٣- الدائرة العسكرية الثالثة : وفيها الجيش الهمايوني الثالث ( أوجنجي أوردو همايوني ) ومقره سلانيك .

٤- الدائرة العسكرية الرابعة : وفيها الجيش الهمايوني الرابع ( دردنجي أوردو همايوني ) ومقره ارزنجان .

٥- الدائرة العسكرية الخامسة : وفيها الجيش الهمايوني الخامس ( يشنجي أوردو همايوني ) ومقره دمشق ، وقد شملت هذه الدائرة ولايات بلاد الشام الثلاث وحلب وسوريا وبيرتو ، ومتصرفتي القدس ودير الزور ، المستقلتين بالاضافة إلى ولاية أدنة ، وعرف هذا الجيش باسم جيش ( عربستان ) أي بلاد العرب ، وقد أدخلت التنسيقات على الجيوش العثمانية بين ١٩١٣ وجعلت على شكل فيالق وفرق وتغيرت أماكن بعضها فتبدل اسم الجيش المرابط في الشام مثلا من الجيش الخامس إلى الجيش الرابع .

٦- الدائرة العسكرية السادسة :وفيها الجيش الهمايوني السادس ( التنجي أوردو همايوني ) وشملت ولايات بغداد والموصل والبصرة ومقره بغداد .

٧- الدائرة العسكرية السابعة : وكانت خاصة بولاية اليمن ، وفيها الجيش الهمايوني السابع ( يدنجي أوردو همايوني ) .

ويرجع الفضل في تنظيم التشكيلات العسكرية والأخذ بالأساليب الأوربية في التدريب إلى عدد من الضباط والقادة الأوربيين لاسيما الألمان والنمساويون الذين وفدوا إلى استانبول للعمل في خدمة الدولة العثمانية وإصلاح أحوالها العسكرية وتنظيم مناهج مدارسها الحربية منهم فون مولتكه وفونبرك وفون دركولتز وغيرهم .

كانت الخدمة العسكرية إلزامية للمسلمين من الرعايا العثمانيين ، وقد حوفظ على النظام الموضوع سنة ١٨٣٥ المتعلق بالأفراد المكلفين بالخدمة العسكرية مع تحديد الخدمة زمن السلم بخمس سنوات ، ثم أنزلت إلى سنتين يمارسون بعدها أعمالهم الخاصة كسائر الناس ، تخفيفا للعبء المالي الذي كانت تعانيه خزينة الدولة فإذا مست الحاجة زمن الحرب دعوا إلى الخدمة في صفوف الاحتياط على مراحل وضمن مدد متقطعة ، تسمى آنذاك ( الرديف ) و ( المستحفظ ) على أن تنتهي خدمتهم العسكرية حين بلوغهم سن الأربعين ، أما المسيحيون واليهود وباقي العناصر غير المسلمة فيعوضون عن التجنيد بمبلغ مالي يسمى البدل النقدي ، وبعد سنة ١٩٠٨

صدرت قرارات من الدولة عدلت بموجبها قوانين التجنيد التي جعلت الخدمة العسكرية إجبارية بحيث تشمل جميع السكان ، دون استثناء وقد اتبعت الدولة في التجنيد أسلوب القرعة الشرعية ، ونظمت بموجب قانون أخذ العسكر لسنة ١٨٨٦ فكان السلطان يبعث بفرمان القرعة في كل سنة إلى الولايات ، حيث تجري مراسم خاصة عند قراءته ، ويكون بحضور الوالي وقائد الجيش والقاضي والأعيان والعلماء وبعد تلاوة القرآن ، يقدم المفتي والحاضرون دعاء خاصا للسلطان ، ثم يعقد مجلس القرعة ويحضر الأفراد المكلفون الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية إلى المجلس وبعد ذلك تجري القرعة ، وبعد إتمامها يكتب الوالي للصدر الأعظم بأن القرعة الشرعية قد أجريت على أكمل واجه ، بل تطوع بعض الأفراد زيادة على النصاب المقرر ، ثم يوزع هؤلاء الأفراد على الألوية التي تعين لكل منهم ليدربوا في معسكرات الجيش ويوزعوا على الدوائر العسكرية ، وقد تضمن قانون ١٨٨٦ المستثنين من الخدمة العسكرية وهم خدمة الحرم الشريف ومقامات الرسل والأولياء وحكام الشرع ومشايخ الطرق الصوفية وأئمة المساجد ، وخطباء الجوامع وطلبة المدارس الدينية وذوو العلل وغير المقتدرين ومن كان وحيد أبويه أو متزوجا من أجنبية أو صغيرة أو عجوز ليس لهن معين .

وبالرغم من اهتمام الدولة العثمانية بتقوية الجيوش وتنظيم الخدمة العسكرية وإصدار القوانين المتعلقة بذلك إلا أن الواقع العسكري في جبهات القتال كان يشير إلى عكس ذلك ، فقد ازداد تهرب الناس من الخدمة

العسكرية بشتى الطرق ، كما كثرت حالات فرار الجنود ، ولعل ذلك يرجع إلى استعمال أساليب العنف والقسوة ند جمع ( القرعة )وطول مدة التجنيد بحيث تذمر الناس ، وضاقوا ذرعا بالخدمة العسكرية ومما زاد في نفور الناس منها إرسال المكلفين بها إلى بلاد بعيدة كالروم إيلي وكريت ، والجبل الأسود ، واستمرار الثورات في بعض الولايات العثمانية وارتفاع عدد القتلى في وحدات الجيش المرسلة لإخماد تلك الثورات .

كما ان النظم العسكرية العثمانية كانت تساعد قطاعات عديدة من أبناء الوطن على التهرب من الجندية بصورة غير مباشرة فقد أعفت طلاب المدارس الدينية من التجنيد كما تحايلت بعض الطوائف على التخلص من الجندية بدعوى أن التجنيد يتعارض مع قيامها بواجباتها الدينية .

ب- قوات الأمن الداخلي :

لم يكن في الولايات العثمانية جهاز أمن منظم قبل فترة الاصلاحات ، بل كانت الحاميات العثمانية وقوات الوالي الخاصة المحلية هي التي تقوم بمهمة حفظ الأمن والنظام ثم شكلت الدولة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قوات أمن خاصة وضعت تحت إشراف الوالي ونيطت به صلاحية نقلها وتوزيعها داخل حدود ولايته ، وعينت الدولة ضابطا ( آلاي بك ) برتبة (مير آلاي ) قائدا لقوة الأمن ، وجعلت ارتباطه بالوالي وقد سميت تلك العساكر بالضابطة أو الضبطية وسميت كذلك في بعض الاحيان ( الجندرمة أو الدرك ) وكانت على شكلين أحدهما ( استراسوار ) أي البغالة

أو الخيالة ويسمون كذلك ( سواريه ) وثانيهما ( البيادة ) وهم المشاة أو غير الراكبين .

وتعد القوات الضابطة الموزعة على مدن وقصبات الولاية الواحدة ( آلايا واحدا ) وكل ( آلاي ) ينقسم إلى طوابير ، والطوابير إلى بلوكات ، والبلوكات إلى طواقم ، ويتألف آلاي من ( ١٠ طوابير ) والبلوك من |( ٥ – ١٠ ) طواقم ، واختلف طاقم الخيالة عن طاقم المشاة من حيث العدد ، فقد كان طاقم الخيالة يتكون من ( ٤ ) أنفار وطاقم المشاة من ( ٨ أنفار ) ونفرين من الضباط باسم ( قول وكيلي ) أو وكيل الحرس و ( معاون قول وكيلي ) ويفوض كل بلوك إلى ثلاثة ضباط هم ( بلوك غاسي ) أي رئيس البلوك ومعاون بلوك أغاسي و ( زورنال أميني) أي أمين دفتر اليومية ، ولا يتجاووز بلوك الخيالة ( ٦٠ ) نفر وبلوك المشاة ( ١٠٠ نفر

استخدمت العساكر الضابطة للقيام بأمور عديدة أهمها :

المحافظة على الأمن والنظام ، ومطاردة المجرمين وقطاع الطرق واللصوص وحراسة السجون وتوفير الأمن والراحة للناس في الطرق والمعابر ، وإطفاء الحرائق وجمع انفار القرعة والاحتياطي ويستعان بها في مهام أخرى ، إضافة إلى واجباتها الأصلية فهي تساعد أحيانا في جمع الإيرادات من العشائر أو يتألف منها حرس القوافل التي تحمل البريد بين المناطق المختلفة من الولاية .

ولم تتألف قوة شرطة المدن ( البوليس ) إلا بعد سنة ١٩٠٠ لهذا لم يكن بوسع قوات الجندرمة القيام بواجبات الشرطة على الوجه المطلوب في الطرق العامة أو الاسواق ولم تكن أحوال افراد الجندرمة تختلف كثيرا عن احوال الجنود وقد حاولت الحكومة العثمانية إصلاح قوات الامن فوضعت سنة ١٩١٣ نظاما جديدا لتوسيع سلطات الشرطة وتغيير تقسيماتها ، وقد استعانت بضباط بوليس أوربيين ويتضمن هذا النظام تقسيم الدولة العثمانية إلى خمس مناطق لكل منطقة لجنة يرأسها مفتش عام ( مدير البوليس العام

الاصلاحات الإدارية والاجتماعية :

واجهت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني سلسلة من الأزمات الداخلية والخارجية ، منها الثورة اليونانية وما صحبها من تدخل دولي وعسكري وسياسي لصالح الثوار اليونانيين ، واستئناف الحرب الروسية العثمانية ، والتي خسرت فيها الدولة العثمانية نيقو بوليس وسلسترة وروسجق ووقعت صلح بخارست من ٢٨ آيار ١٨١٢ الذي جعل نهر البروت حدا فاصلا بين روسيا والدولة العثمانية كما واجه السلطان الحركة ( الوهابية ) في الجزيرة العربية ودخل في صراع مع محمد علي باشا واليه على مصر ، هذا إلى جانب العديد من الانتفاضات التي وقعت في بعض الولايات .

لذلك قرر السلطان محمود الثاني اتباع سياسة مركزية وإعادة الحكم المباشر إلى كافة الولايات العثمانية فقضى على المماليك في بغداد سنة

١٨٣١ والجليليين في الموصل ١٨٣٤ والأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب ، ولكنه فشل إخماد الحكة ( الوهابية ) التي ظلت مسيطرة على قلب الجزيرة العربية ونجحت في الانتشار في بعض المناطق حتى استعان بوالي مصر محمد علي فأخمدها سنة ١٨١٨ .

أنجز السلطان محمود الثاني برنامج إصلاحات واسع النطاق وضعت فيه الخطوط الرئيسة التي سار عليها مصلحو الدولة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ففي حقل التعليم أسس عددا من المدارس الابتدائية والثانوية الجديدة ومدرسة للحقوق واخرى للطب يديرها مدرسون فرنسيون وأعيد فتح السفارات في الدول الأوربية وكانت قد أغلقت خلال سيطرة أعداء الاصلاح ، وفي عهده أرسل حوالي مئة طالب للدراسة في أوربا وظهرت في عهده جريدة الحكومة الرسمية ( تقويم الوقائع ) وصدر عددها الأول سنة ١٨٣١ فضلا عن ذلك فقد شهدت فترة حكمه إعادة النظر بنظم الادارة المركزية للحكومة فأنشأ وزارات المالية والاوقاف والحربية والداخلية .

كما اسس ( ترجمة أوده سي ) أي إدارة الترجمة التي تحولت بعد ذلك إلى وزارات الخارجية ، ومن ( ترجمة أوده سي ) تخرج عدد من رجال الدولة العثمانية الذين تحملوا عبء الاستمرار في الاصلاحات أمثال عالي باشا وفؤاد باشا ونامق كمال باشا وغيرهم ، وأسس محمود الثاني مجلسا للوكلاء ( الوزراء ) على غرار مجالس الوزراء في الدول الأوربية رغبة منه في

زيادة الكفاءة الادارية ، كما حدثت بعض التغييرات في مناصب الدولة ، ففي سنة ١٨٣٧ ألغي لقب الصدر الأعظم مؤقتا واسندت سلطاته إلى باش وكيل أو الوزير الأول وهو يعادل منصب رئيس الوزراء ، وفي أيامه ظهرت قوة الباب العالي الذي كان مقرا للصدر الأعظم ، ووزارات الدولة ، وبمرور الزمن اصطدمت رغبة السلطان الذي كان يريد سلطة استبدادية مطلقة بميل الطبقة البيرقراطية الإدارية لتقييد سلطته بالمبادئ والقوانين المدنية ، وقد أدى ذلك الاصطدام إلى ظهور الانشقاق بينهما عند نهاية القرن التاسع عشر .

وفي مجال القضاء أسس السلطان محمود الثاني ( المجلس الأعلى للقضاء ) وكلفه بإعادة النظر في القوانين وعرف باسم ( مجلس عالي احكام عدلية ) وكان أعضاؤه من مختلف الولايات ، وقد انبثق من هذا المجلس سنة ١٨٦٨ مجلس ( شورى دولت ) أي مجلس شورى الدولة ، كما أصدر قانونا للعقوبات ، وأدخل الزي والنظام الأوربية في الجيش العثماني وأسس مجلس ( شورى عسكري ) أي مجلس الشورى العسكري لتنظيم الأمور العسكرية ، وألغى نظام البكتاشية والمولوية لارتباط هاتين الطريقتين الصوفيتين بتنظيمات الجيش الانكشاري .

## الفصل السابع

## بريطانيا والعرب فترة الحرب العالمية الأولى ؛ مصر نموذجاً

قامت الحرب العالمية الاولى نتيجة لاغتيال الارشيدوق فردينا ند ولى عهد النمسا بيد احد الصربيين ونتيجة لدخول النمسا الحرب ضد الصرب وموازرة الروسيا للصرب مما استتبع دخول فرنسا وانجلترا الحرب الى جانب روسيا ٤ اغسطس ١٩١٤ م .ولقد انتهزت انجلترا هذه الفرصة لكى تعمل على اعلان حمايتها على مصر ، وكشفت بذلك النقاب عن سياسة كانت تطبقها بشكل غير رسمي منذ نزول قواتها الى مصر سنة ١٨٨٢م حيث انها لم تستطيع ضم مصرالى الممتلكات البريطانية واعلان الحماية عليها منذ اختلالها اياها فى ١٤سبتمبر ١٨٨٢م وذلك خشية اثارة شكوك الدول الموالية لسياستها واثارةالفوضى فى مصر لمناهضتها للسياسة التى اعلنت عنها حكومة جلالة الملكة اثر احتلالها للبلاد وذلك مراعاة للراى العام الانجليزى الذى كان ينفذ سياسة ضم مصر الى الممتلكات البريطانية وبناء عليه فضلت اعلانالحماية المقنعه عليها لانها رات فى انتهاجها لمثل هذه السياسة احتفاظا.بشخصية مصر من حيث تبعيتها للباب العالي بمقتضى فرمانات ( ١٨٤١ . ١٨٧٦ – ١٨٧٩ ) التي هي وثائق دولية لموافقة الدول عليها وليس في مكانتها تغييرها أو تعديلها دون موافقة السلطان و

الدول الأوربية ، فرأت عدم إثارة تلك الدول وخاصة فرنسا التي ظلت معارضتها للاحتلال الإنجليزي مستمرة حتى إبرام الوفاق الودي ١٩٠٤م و الذي بمقتضاه أطلقت فرنسا يدها في شمال أفريقيا وأطلقت إنجلترا يدها في مصر. وعلى هذا الأساس ظلت مصر تابعة لتركيا حتى قيام الحرب العالميةالأولى في سنة ١٩١٤م فتضافرت عوامل اتخذتها إنجلترا ذريعة لفصل مصر عن الدولة العثمانية نهائيا وإعلان الحماية عليها ، ولقد كانت هذه العوامل متعددة منها : تفاقم الموقف في الشرق الأدنى ثم ما كانت تخشاه إنجلترا وقتئذ من حدوث فتنة داخلية يقوم بها الألمان والأتراك المقيمون بمصر بعد أن اشتركت تركيا في الحرب ضد الحلفاء وانحاز الخديوي إلى جانب الأعداء ثم ما كانت تراه شذوذا في موقف المصريين الذين وجب عليهم بمقتضى الفرمانات السلطانية التي تنظم العلاقات بين مصر و الباب العالي أن يقدموا المساعدة الحربية لتركيا حين يحول وجود الاحتلال دون تمكينهم من فعل ذلك فخشيت إنجلترا من انضمام المصريين إلى الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم و التي تربطهم بها وشائح الدين و العاطفةوجد الاحتلال مخرجا في جعل الحكومة المصرية تبادر بإعلان أن وجود جيوش الاحتلال بمصر يعرضها للغزو الأجنبي وعلى ذلك فقد أسندت مهمة الدفاع عن مصر إلى الجنرال جون مكسويل أمام الاستعداداتالتي تقوم بها تركيا في سوريا و التي اعتبرتها تمهيدا لغزو مصر وفي ذلك الوقت كانت وزارة الخارجية الإنجليزية قد انتهت من تقرير مسير

محسر واستقرار رأيها على إعلان الحماية عليها بعد أن نبذت فكرة ضم للممتلكات البريطانية ضما صريحا رغبة منها في تجنب خلق مشاكلمصر هي في غني عنها ، في تلك الآونة العصيبة، كما أنها نبذت فكرة إعلان حياد مصر على أساس أن هذا ربما يؤدي إلى قيام المصريين بعمل معاد لإنجلترا ومعاونة هؤلاء ( المصريين ) لألمانيا التي كانت متحالفة مع تركيا بمقتضى معاهدة دفاعية سرية أبرمت في " نزابيا " في ٢ أغسطس ١٩١٤م بين السفير الألماني فونفانجنهام وبين الصدر الأعظم سعيد حليم لا سيما وأن الأتراك كانوا قد وضعوا خطة للهجوم على قناة السويس والى جانب هذا كانت إنجلترا ترغب في الانتفاع بمؤازرة مصر للقوات الإنجليزية فيها أيام الحرب ، وهذا لا يتيسر إنأعلنت مصرحيادها رسميا ، إذ أن طلب المساعدة لمصر حينئذ يلقي على عاتق مصر عبنا ينطوي على إجبار بلد محايد على القيام بعمل حربي سوف تصبح له ضرورته التي لا مفر منها، وعلاوة على ذلك فإن فكرة فصل مصر عن تركيا وإعلان استقلالها استقلالا داخليا في نطاق الإمبراطورية ، تلك الفكرة التي راودت الحكومة الإنجليزية لم تجد قبولا وذلك لاعتقادها أن هذا الوضع لا يلائم مصلحة إنجلترا في وقف الحرب ولأنها كانت متيقنة تماماً من نيل المصريين لمساعدة الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم والذي تربطهم بها رابطة الدين وليس أدل على ذلك من مبادرة سلطات الاحتلال بالإيعاز إلى الحكومة المصرية بإيقاف نشاط الجمعية التشريعية ومهدت لهذا بأنأصدرت قانون في ١٨ أكتوبر ١٩١٤م

يمنع اجتماع خمسة أشخاص على الأقل في أي مكان ما ، وجعلت عقوبة المخالفين لهذا الحبس لمدة ستة أشهر أو غرامة مقدارها ٢٠ جنيه ، وفي نفس اليوم صدر أمر تعطيل عقد الدورة الثانية للجمعية التشريعية .واستقر رأي الحكومة الإنجليزية إذا على إعلان الحماية إذا رأت في إعلان الحماية نتيجة طيبة ومنطقية إلى حد لا يمكن معه مهاجمتها لسياسة كرومر التي كانت تهدف دائما إلى إبقاء الحكم في أيدي المصريين ، ومن ورائهم يقوم الإنجليز بنصحهم وتشجيعهم أو كبح جماحهم .وعلى هذا الأساس فقد أعلنت إنجلترا الحماية على مصر في ١٨ ديسمبر ١٩١٤م ، فقد جاء في إعلان الحماية " نظراً لأن حالة الحرب الناشئة من اشتراك تركيا وضعت مصر تحت حماية جلالته " أي جلالة ملك المملكة المتحدة وإمبراطور الهند " وتصبح الدولة تحت الحماية البريطانية ، وبهذا تنتهي سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومته الإجراءات اللازمة للدفاع عن مصر وحماية سكانها ومصالحها ".

وقد جاء إعلان هذه الحماية في رأي عديدين باطلا من وجهة نظر القانون الدولي ، فهو إعلان صادر من جانب واحد وفرض للقوة وحدها فهي حماية لم يعترف بها المصريون ولا الدول الأوروبية ولقد أردفت إنجلترا هذا الإعلان بإعلان آخربتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٤م يقضي بعزل الخديوي عباس حلمي الثاني وتولية الأمير حسين كامل الذي أعلن سلطان ، وهكذا

أنهت الحماية الاستقلال الذي كان لمصر . في حدود الفرمانات ، كما انتهت حقوق تركيا في السيادة على مصر و الحقوق التي كانت أيضاالخديوي بمقتضى الفرمانات وكل تلك كانت حقوقا انتزعتها إنجلترا صاحبة السيادة القانونية . لنفسها فصارت من الآن فصاعدا ، وطالما بقيت الحماية على مصر هيوهكذا عمدت إنجلترا إلى تثبيت مراكزها في مصر لا سيما وأن تركيا هي صاحبة الشرعية على مصر من وجهة النظر الدولية دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا فضغط المعتمد البريطاني في مصر على حكومة حسين رشدي في مصر لتأجيل عقد الجمعية التشريعية وفرض الرقابة على الصحف ، وفي الوقت الذي كانت فيه وزارة الحربية البريطانية تضع خططها الحربية في الشرق الأوسط ، كانت وزارة الخارجية البريطانية تمهد لنظم العلاقات الشكلية بين مصر وتركيا .

وهكذا انتهت السيادة العثمانية عن مصر وفرضت على مصر قيود الحماية البريطانية وانتهكت خلالها حرمة مصر وكرامتها فازداد إشراف إنجلترا على الأمور الداخلية و الخارجية وأعطت لنفسها حق الدفاع عن البلاد ، وسخرت كل موارد البلاد لخدمة حرب شنتها هي وليس لمصر فيها ناقة ولا جمل بل خدمة مصالح إنجلترا الاستعمارية أولا وقبل كل شيء ، ولقد انتهزت إنجلترا فرصة هذه الحرب لتقضي على كل حرية وكل حقوق البلاد في سبيل خدمة مصالحها هي وصارت مصر في ظل الحماية خاضعة

لانجلترا رأسا وليس لها أمر في إدارة شئونها الداخلية و الخارجية ، وأصبح الحكم العسكري البريطاني هو المسيطر على كلشيء وذلك باعتراف الدول الموالية لانجلترا.ولم يستطع المصريون أن يقاوموا الحماية البريطانية في الوقت الذي صارت فيه البلاد تعج للقوات البريطانية ، واستأثر المندوب السامي البريطاني سير مكماهون بالسلطة الفعلية في إدارة شئون مصر الداخليةو الخارجية.وفي تلك الأثناء دأب الإنجليز على بذل الوعود البراقة للعرب لتحقيق الاستقلال إذا هم ساعدوا الحلفاء ضد الأتراك ، وتحت تأثير هذه الوعود قاتل العرب في صف الحلفاء ضد تركيا دولة الخلافة ، وبفضل مساعدة العرب وقيام الثورة العربية الكبرى بزعامة الشريف حسين تمكن الحلفاء من تعويض النفوذ العثماني في البلاد العربية ، وساعد المصريون الإنجليز في طرد الأتراك من سيناء. فتحمل المصريون عناء كبيراً في سبيل تموين الجيوش البريطانية بالعمال و المواد الغذائية أثناء الحرب ، وربما وثق المصريون عندئذ بوعود الحلفاء وتصريحات ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية من حق تقرير المصير دون تدخل أو ضغط من الدول الأخرى ، ولم يعلم المصريون و العرب جميعاً عندئذ أنهم في الوقت الذي كانوا يقدمون هذه التضحيات من أجل الحلفاء ، وفي الوقت الذي دأب الحلفاء على تقديم الوعود للعرب بالاستقلال و الحرية بعد انتهاء الحرب كانت إنجلترا تحيك مؤتمراتها الكبرى ضد العرب فعقدتاتفاقية سايكس بيكو ( مارس ١٩١٦ ) بين إنجلترا وفرنسا وروسيا لتقسيم ممتلكات الدولة

العثمانية ، وبمقتضى هذه الاتفاقية كانت العراق وفلسطين من نصيب إنجلترا فضلا عن مصر التي كان مفروضا أنها تحت الحماية فعلا في حين كانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا. ولمتكشف انجلترابتلك الجريمة بل أرادت أن تمضي في مخططها الاستعماري فأعلن بلفور وزير الخارجية البريطاني تصريحه المشئوم يجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود وهكذا أخذ العرب دروسا قاسية جزاء ثقتهم في شرف الاستعمار. وأما من حيث نظام الحكم قض فقد قضت إنجلترا نهائيا على نظام الخديوية هذا النظام الذي أقرته تركيا لمصر في عهد الخديوي إسماعيل ، وأحلت الحكومة البريطانية نظام السلطة محل ذلك النظام ، وهكذا كان مجيء الحماية إيذانا بانتهاء الخديوية ، وزالت نهائيا الروابط بين الهيئة الحاكمة في مصر و الدولة العثمانية حتى أعلنت إنجلترا قيام نظام السلطنة . ولما مات السلطان حسين كامل وضعت إنجلترا في السلطة أخاه فؤاد ، ومع ذلك فإن الشعور القومي ظل موجودا في نفوس الش المصري ينتظر الفرصة للانفجار ، وكانت الحكومة المصرية نفسها بالرغم من موالاتها لإنجلترا وتعاونها معها تنتظر منها بعض العمل لتحقيق أماني مصر القومية عقب انتهائها من الحرب وانتصارها ، ولكن الحكومة البريطانية ظلت جامدة لا تعطي المصريين أملا حقيقيا . تحمل الشعب المصري إذا تحت نظام الحماية الكثير من الويلات فإلى جانب ما ذكرنا فقد انتهزت إنجلترا سلطات الحماية وجندت نحو مليون ونصف من المصريين لخدمة الجيوش البريطانية ، كما استولت إنجلترا على الدواب

وأعلافها ، إذا كانت الحبوب و الحيوانات التي يمتلكها الفلاحون موضع مصادرة أو شراء بثمن بخس من جانب السلطات العسكرية البريطانية ، واستخدم المصريون بجمالهم وبسواعدهم ليس فقط في فلسطين حيث تتقدم القوات البريطانية ، ولكن أيضا في فرنساواشترك الجيش المصري في القتال إلى جانب الجيوش الإمبراطورية في جبهات ثلاث : الجبهة الشرقية ضد القوات التركية ، و الجبهة الغريب ضد قوات السنوسي ، والجبهة الجنوبية في السودان ضد السلطان على دينار.

–وكل تلك الإجراءات لم تكن لتمر دون رد فعل من جائب الشر المصري ، فحدثت مظاهرات طلابية ، ومحاولات متكررة لاغتيال السلطان حسين كامل ، ومظاهرة الرديف أمام قصر عابدين في ٢٩ ينـاير ١٩١٦ واعتذار الأمير كمال الدين عن قبول العرش الذي خلا بوفاة والده في أكتوبر ١٩١٧م ، مما حدا بالسلطات البريطانية إلى اختيار أحمد فؤاد سلطان على مصر يوم ١٠ أكتوبر في ظل الحماية البريطانية وكل ذلك كان مقدمات لثورة ١٩١٩ م.

• ثورة سنة ١٩١٩م :

كان اشتعال الحرب العالمية الأولى بدء نضج الثورة المصرية التي تفجرت عام ١٩١٩م وذلك أنه ارتبط بإشعال هذه الحرب إعلان الحماية البريطانية على مصر وقطع كل صلة لمصر بتركيا ، واشتراك المصريين في

الحرب ومنع سكان مصر من مراسلة رعايا تركية وألمانيا و النمسا ، كما كاناعتقال سعد زغلول وصحبه في أوائل عام ١٩١٩م السبب المباشر للثورة وليس السبب الوحيد لها . إذ أنه بعد انتهاء معارك الحرب العالمية الأولى تألف الوفد المصري منذ ١٣ نوفمبر ١٩١٨م من خلاصة الرجال المثقفين ثقافة قانونية ، وكانوا أعضاء في الجمعية التشريعية المعطلة، وكان على رأس الوفدسعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوي ومحمد محمود وأحمد لطفي السيد وغيرهم ، ومن ثم رأينا هذا الوفد يمثل خليطا من رجال الحزب الوطني وحزب الأمة والكفايات الشخصية وفيه تتمثل وحدة الشعب المصري إلى جانب تفاهم رئيس الوفد . سعد زغلول . مع حسين رشدي باشا رئيس الوزراء حتي تشارك السلطات التشريعية التنفيذية في التقدم بمطالب موحدة لخدمة القضية الوطنية . جاء تشكيل الوفد المصري على أساس جديد في التاريخ المصري الحديث هو التوكيل الشعبي بالحصول على توقيعات المصريين في مختلف الأقاليم بتوكيل الوفد المصري . سعد وزملاؤه . للتحدث باسم الشعب المصري في المطالبة بالاستقلال وإنهاء الحماية. وكان اللجوء إلى الشعب للحصول على توكيل منه عمل من أعمال الديمقراطية المبكرة بالنسبة لظروف مصر في عام ١٩١٨م، وكان الدافع للحصول على التوكيلات الشعبية هو ما شعر به سعد زغلول وزميله عبد العزيز فهمي وعلى شعراوي من دهشة السير ريجنالد ونجت Regnald Wingate المندوب السامي البريطاني من أنه ثلاثة يتحدثون

عن أمة بأسرها دون أن يكون لديهم ما يخولهم صفة التحدث باسمها وذلك أثناء لقاتهم به في ١٣ نوفمبر ١٩١٨م لعرض المطالب الوطنية. فكانت النتيجة تأليف الوفد المصري كهيئة تتحدث باسم الشعب المصري في نفس اليوم تم انضمـــام أعضاء آخرين في ٢٣ نوفمبر من نفس العام حتى إذا بلغ عدد الأعضاء أربعة عشر بزيادة سبعة على أعضاء الوفد الأول أعيد تكوين الوفد من –جديد ، وصدق الأعضاء الجدد على قانون الوفد في ٢٣ نوفمبر ١٩١٨موهو الذي وضعه الوفد الأول .

إذن تعددت الأسباب المسئولة عن تفجر ثورة ١٩١٩ في مصر وتمثلت تلك الأسباب في ضيق المصريين من استمرار الاحتلال البريطاني للأراضي المصرية ، وتبرمهم من سلخ السودان من وحدته مع مصر وإلغاء الجيش المصري ، وتعيين مستشارين إنجليز في مختلف المصالح الحكومية وزيادة عدد الموظفين الأوربيين في كل الإدارات ، وتعطيل الجمعية التشريعية وشل دور الحكومة الوطنية ثم إعلان الحماية البريطانية على مصر مع ما ارتبط بذلك من حرمان مصر من الاتصال المباشر بدول العالم وسيطرة الدولة الحامية على كل صغيرة وكبيرة في أمور مصر ، ووضعت أرض مصر وإمكانياتها لخدمة القوات البريطانية في حربها ضد دول الوسط ، فتحمل الشعب المصري مظالم السلطة العسكرية على مقبض في ظل أحكام عرفية صارمة طوال مدة الحرب ، في الوقت الذي يشعر فيه الشعب

المصري بمكانته التاريخية و العلمية بين شعوب منطقة الشرق الأوسط ، وفي الوقت الذي يعمل فيه الحزب الوطني على إذكاء الروح الوطنية في نفوس المصريين

## الفصل الثامن

## الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م

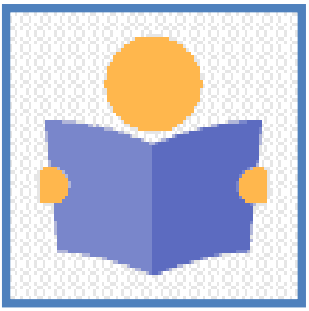

كان الحلفاء فى عام ١٩١٤ يتفوقون على الدول المركزية ( ألمانيا والنمسا والمجر ) فى القوة العسكرية ، فقد كان لديهم ٣٠ مليون محارب ، فى مقابل ٢٢ مليون للدول المركزية ، وكان للبحرية البريطانية السيطرة على البحار. وضعت ألمانيا خطة الحرب منذ سنوات ، فهى بالتالى مستعدة لخوض غمار هذه الحرب ، فعندما أعلنت الحرب على فرنسا ، دخلت خطة الكونت فوت شليفين Schlieffen الحربية ، وهى التى وضعها فى عام ١٩٠٥ وأقرت رسمياً فى عام ١٩١٢ فى دور التنفيذ ، وتقوم على الهجوم على فرنسا أولاً عن طريق اختراق حياد بلجيكا ولكسمبورج واحتلال باريس ، ثم التحول إلى روسيا للهجوم عليها ، وهذا

يعنى ترك بروسيا الشرقية معرضة لضربة من جانب روسيا الرابضة فى الشرق ، ولكن هذا الأمل كان معقوداً على صمود النمسا والمجر أمام روسيا لمدة ستة أسابيع ، تكون باريس فيها قد سقطت ويمكن بعدها إرسال الإمدادات إلى الجبهة الشرقية ، على أن روسيا انتهزت فرصة انشغال القوات الألمانية فى فرنسا ، لإنقاذ جيشين كبيرين لتطويق القوات الألمانية فى بروسيا الشرقية ، الأمر الذى اضطر ألمانيا إلى سحب ثلثى قواتها من الجبهة الغربية لمواجهة هذا الخطر

ولما كانت الخطة الألمانية مدبرة من سنوات عدة ، فهى من ثم خطة عتيقة يمكن إحباطها لو أنها قوبلت باستعمال الخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعمالاً صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا متقدمين فى فنهم العسكرى تقدم الألمان ، فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة التى كانت متأخرة ، ولم يكن لديهم عتاد مناسب لا من الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة.

وكان الدفاع عن الحدود البلجيكية موكولاً بحصون " لييج Liege " وهى حصون قديمة الطراز عشر سنوات أو اثنى عشرة سنة ، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة وركبها فى كثير من الحالات مقاولون من الألمان ، وكان العتاد فى الحدود الفرنسية الشمالية الشرقية رديئاً جداً ، وطبيعى أن شركة الأسلحة الألمانية المسماة كروب أعدت لهذه الحصون

الهزيلة معاول تتمثل فى مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقنابل شديدة التفجر ، وأثبتت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصايد لحماية المدافعين ، وكان لدولتى الوسط ، والنمسا والمجر ، ما يقرب من مائة وعشرين مليوناً من السكان ، فى الوقت الذى كان فيه لخصومهم – روسيا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا والصرب – ما يقرب من مائتين وثمانية وثلاثين مليوناً دون حساب شعوب المستعمرات ، ، وهذا الفارق العددى ، والذى لم تكن له قيمة كبيرة فى حرب قصيرة الأمد ، ازدادت أهميته فى إمكانية استمرار الحرب لمدة طويلة ، الأمر الذى يجعل من الاحتفاظ بقوات عسكرية مُشكلة رئيسية .

بريطانيا فقد جاهدت قدر الاستطاعة فى سبيل حفظ السلام فى بداية الحرب ، فعلى حد قول " فشر " أنه لا يمكن أن توجه إليها تهمة السعى إلى إشهار الحرب ، فإنه كان أمراً لا مفر منه ، فعند إقحام فرنسا فى الحرب نجد أن الشعب البريطانى نفسه كان لا يريد الحرب حتى أنه لولا غزو ألمانيا لبلجيكا لحل بصفوف الوزارة والبرلمان والأمة الانشقاق وتفرق الكلمة.

وبذلك فإن بريطانيا رأت ضرورة تأمين مركزها فى شمال الخليج العربى وجنوب فارس ، ولكى يتحقق ذلك ينبغى لها أن تسيطر على البصرة فى مطلع الحرب ، ففى نهاية شهر سبتمبر ١٩١٤ وافقت حكومة " مستر اسكويث Mr. Asquith " على إرسال حملة من الهند البريطانية إلى الخليج العربى وذلك استناداً إلى المذكرة التى قدمها آنذاك " سير آرثر هرتزل

Sir A. Hirtzel " من قسم الشئون السياسية " بوزارة الهند India Office " فى اليوم الثانى من سبتمبر ١٩١٤ ، والتى أكد فيها أن الدولة العثمانية ستنضم إلى دول الوسط وأن المسألة لآ تعدو أن تكون مسألة وقت قبل أن تعلن الدولة العثمانية موقفها ، وركز هرتزل على أنه من الخطورة ترك شمال الخليج العربى دون إحكام السيطرة البريطانية عليه لما قد يؤدى إليه ذلك من نجاح الدولة العثمانية .

الجدير بالذكر أن حكومة الهند البريطانية فى بداية الحرب بذلت جهوداً كبيرة من أجل مستقبل الجانب الشرقى من الدولة العثمانية ، ومنها وضع مخطط استراتيجى للدفاع عن العراق بعد أن يتم نجاح البريطانيين فى ضمه إلى ممتلكاتهم .

أما الدولة العثمانية فقد دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا ، بعد تورطها فى حرب الموانى الروسية على البحر الأسود فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٤ ، فأعلنت روسيا الحرب عليها ، وانضمت كل من فرنسا وبريطانيا إلى جانب روسيا وأعلنتا الحرب على الدولة العثمانية فى ٥ نوفمبر ، مما جعل الدولة العثمانية بدورها تعلن الحرب على الدولتين فى ١١ من نفس الشهر ، وبالتالى أعلنت بريطانيا زوال السيادة العثمانية وقيام الحماية البريطانية على مصر ، وبذلك أصبح إشرافها تاماً على القناة ، وبذلك صار الصراع علنياً وشمل القتال كل قارات العالم خاصة بعد أن دخلت ميدان الصراع كل

من اليابان والتى لم يكن التحالف البريطانى اليابانى يلزمها بدخول الحرب ولكنها رأت فى دخول الحرب فرصة سانحة لها لاحتلال مستعمرات ألمانيا فى الصين ، والمحيط الهادى فتشفى بذلك غليلها من كثرة الإهانات التى ألحقت بها من الجانب الألمانى ثم دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فيما بعد – وكان تدخلها فى ٦ أبريل ١٩١٧ أمراً حاسماً إذ جاء بمثابة تعويض عن قرب تخلى روسيا عن الحلفاء.

وكانت تركيا هى الدولة الأولى من بين هذه الدول التى دخلت فى الحرب ، و فى ٢ أغسطس ١٩١٤ كانت حكومة تركيا الفتاة برئاسة أنور باشا ، قد عقدت مع ألمانيا معاهدة تحالف سرية ضد روسيا ، وفى ١١ أغسطس كانت قد سمحت للطرادين الألمانيين ( جوين وبرسولا ) اللذين تعقبهما الأسطول البريطانى بعبور الدردنيل الذى ظل مغلقاً فى وجه السفن الإنجليزية ، وكانت قد أقفلت المضايق فى ٢٦ سبتمبر فى وجه السفن الإنجليزية ، وفى وجه الملاحة التجارية ، أى أنها كانت قد منعت وصول المهمات الحربية التى كانت الجيوش ال روسية تنتظرها بقلق ، وقد أجلت دخولها الحرب واستمرت نحو ثلاثة أشهر مترددة ، ولا شك فى أن تركيا كانت تخشى كل شئ فى حالة انتصار روسيا : فبريطانيا رغم أنها كانت فى الماضى ، وقد حمت هذه الإمبراطورية العثمانية ضد الأطماع الروسية ، إلا أنها وجدت نفسها مضطرة لأن تترك روسيا تعمل حتى لا يتفكك التكتل ، ،

وعلى العكس من ذلك لم تكن المصالح العثمانية تخشى أى شئ من انتصار ألمانيا ، والتى كانت ببنائها لسكة حديد بغداد ، قد أسهمت فى تدعيم الإمبراطورية ، والتى كانت تظهر أمام العالم أجمع على أنها تحمى الإسلام، بل أن البريطانيين كان عليهم أن يلتزموا بالسيطرة والدفاع عن الخط الحديدى المتجه إلى بغداد وذلك فيما بين ميناء الإسكندرونة والموصل.

وقد كان أحرى بالسلطان أن يواصل سياسة الحياد ، ولكن نفوذ أنور باشا وزير الحربية ، وظهور الطرادين الألمانيين فى مياه البسفور ، والإكراميات الألمانية التى نثرت فى عديد من الدوائر التركية ، والمضايقة التى سببتها بريطانيا لتركيا بحجزها فى أحواضها البحرية بارجتين كان صنعهما قد اكتمل ، كل هذه الأمور دفعت تركيا أن ضربت الثغر الروسى العظيم " أوديسا " فى ٢٨ أكتوبر ١٩١٤ بواسطة طرادان ألمانيان كان قد بيعا صورياً لتركيا ، وبهذا ورطت تركيا ودخلت الحرب فى جانب ألمانيا والنمسا فى اليوم التالى ، وكانت عواقب دخولها الحرب غاية فى الخطورة ، فإن روسيا التى كانت تملك قوات من الرجال لا حصر لها ، نقصتها المعدات الميكانيكية لمواصلة حرب حديثة ، فما حل خريف سنة ١٩١٤ ، حتى كانت قد استنفذت إحتياطيها من الذخائر ، إذ لم يكن فى مقدورها أن تسد سوى ثلث مطلوبها اليومى من الذخائر مما تنتجه مصانعها [١٥] .

بدأت الحرب على نحو مأساوى بالنسبة للأتراك لأن أنور باشا لم يأخذ بنصيحة الألمان وأخذ على شن هجوم ضد روسيا فى منطقة القوقاز على أمل أن يثير التمرد بين مسلمى أواسط آسيا مما يساعد على تحقيق آماله بشأن الطورانية الشاملة Pan – Turan وتمكن الروس من استعادة توازنهم عقب الهجوم الأول ، ثم عانت القوات التركية من البرد ، وعلاوة على ذلك كان الأتراك فى جميع أرجاء الأناضول الشرقية يتعرضون للتهديدات بسبب العصيان المسلح الذى كان يمارسه الرعايا الأرمن الذين راحوا يدمرون وسائل المواصلات والاتصالات ويشكلون فرق تطوع من أجل مساعدة الروس ، فاضطر الأتراك إلى إصدار الأوامر بترحيل جميع السكان الأرمن من الأناضول الشرقية إلى الأماكن الشمالية من سوريا ، وتم قتل مئات الآلاف من الأرمن ومات الكثيرون منهم بسبب الجوع وسوء الأحوال الجوية والأمراض [١٦] ، وهذا ما يطالب به الغرب بصفة عامة تركيا فى الوقت الحاضر بالاعتراف بمذبحة الأرمن حتى يمكن إدانتها فى مجلس الأمن وعلى مستوى العالم ، الأمر الذى رفضته تركيا رفضاً باتاً .

وقد تسبب دخول تركيا الحرب جانب ألمانيا ودول الوسط فى مساندة إنجلترا وفرنسا أعمال المقاومة ضدها فى البلقان ، وكان الثمن الذى دفعته تركيا هو التخلى عن المنطقة [١٧] ، كما تسبب دخول تركيا الحرب ضد روسيا أن أنفذ الحلفاء أسطول بريطانى لاقتحام الدردنيل ، وجيشاً إلى شبه

جزيرة غاليبولى Gallipoli خط الدفاع الاستراتيجى عن القسطنطينية وضم هذا الجيش نحو ٣٠٠٠ رجل مصرى حققوا نجاحاً عظيماً للقوات الإنجليزية ، وفى تقرير من وينجت Wingate إلى بلفور Balfour يبين أنه عندما زاد الطلب على أهل الريف خلف خطوط القتال فى غاليبولى وفرنسا وسيناء والعراق وفلسطين نظراً لقدرتهم على تحمل الأعباء اليدوية الشاقة ، أنه خلال الفترة من سبتمبر ١٩١٥ إلى آخر مارس ١٩١٦ تم جمع نحو ١٩٥٣٧ عاملاً ( زاد العدد ليصبح ٧٢٥٤٨ فى ٣١ مارس ١٩١٧ ثم زاد إلى ٩٧٥٧٨ فى ٣١ مارس ١٩١٨ وزاد مرة أخرى فى ٣٠ يونيو ليبلغ نحو ١٠٦٨٥٠ عاملاً [١٨] ، وهناك تقرير آخر يوضح أن ما تم جمعه من عمال التراحيل كان نحو ١٤٦٠٠ عاملاً شهرياً [١٩] ، فى حين أن أحمد شفيق فى حولياته قدرها نحو نيفاً ومليون فرد [٢٠] ، كما أعلن السير موراى عن حاجته إلى ١٢٠٠٠ فلاح مصرى شهرياً لفيلق العمال و ٥٠٠٠ فلاح شهرياً لفيلق النقل بالجمال وأوضح أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق التجنيد الإجبارى [٢١] ، أيضاً طلب اللواء هربرت أعداداً أخرى من الرديف للعمل فى فرقة التشهيلات المساعدة.

ناهيك عن استخدام القوات البريطانية كثير من المجالات المصرية مثل الأفراد والدواب ووسائل النقل وعلف الدواب رغم أنف المصريين للخدمة فى كثير من ميادين القتال وكان لهؤلاء دور كبير فى انتصار الحلفاء ، ليس

هذا فحسب ، فقد قدمت مصر مدرسة البوليس لاستعمالها مستشفى حربية ، هذا جانب المستشفيات المصرية ودور جمعية الهلال الأحمر المصرى فى الحرب، لصالح الجرحى الإنجليز وحلفائهم ، كما تم استخدام قناة السويس لصالح الحلفاء، أيضاً قامت السلطة العسكرية البريطانية بتقييد الحرية التجارية المصرية مع دول العالم ، وأن القوات البحرية والحربية البريطانية يجوز لها أن تباشر جميع حقوق الحرب فى الموانى المصرية أو فى الأرض المصرية ، وكل ما يجرى الاستحواذ عليه فى الموانى المصرية أو فى الأرض المصرية من سفن حربية أو تجارية أو بضائع يجوز إحالته على إحدى محاكم الغنائم البريطانية، وكان الغرض من اقتحام المضايق إنشاء ممر بين البحر المتوسط والبحر الأسود مع الاستيلاء على العاصمة التركية ، لإنقاذ روسيا من عزلتها ، وتمكين الدول الغربية من الاتصال بها حتى يمكن تطويق ألمانيا فى كل مكان ، وعزل تركيا عن حلفائها ، فعندما دخلت تركيا الحرب واعتدى الأسطولان الإنجليزى والفرنسى على مضيق الدردنيل رغم تحصينه ومضيق البسفور ، فقد كانت هناك آراء بأنه يمكن منع الأسطول من الاقتراب من المضايق ، أوعلى الأقل منعه من الإنزال البرى ، مع التخوف من حدوث إنزال برى فى حالة وجود أسطول قوى ، وخاصة إذا تمكن العدو من اكتساب موقع على الساحل.

ولكن هذه الحملة ( حملة الحلفاء ) لم تنجح ، فقد انهزم الأسطول الإنجليزى هناك فى ١٨ مارس ١٩١٥ ، وفشلت الحملة البرية فى اقتحام غاليبولى واضطرت إلى الانسحاب النهائى ( ١٨ ديسمبر ١٩١٦ – ١٩١٧ ) وعجزت روسيا عن مد يد المساعدة لحلفائها كما كانوا يتوقعون ، لذا عمد الحلفاء إلى مهاجمة تركيا فى إمبراطوريتها فى الشرق الأوسط فقد استولوا على الجزء الأكبر من العراق ودخلوا بغداد ، واستولوا فى فلسطين على يافا وبيت المقدس بمساعدة الآلاف من العمال المصريين الذين قامت بجمعهم السلطات البريطانية فى مصر حيث قاموا بتعبيد الطرق إلى فلسطين ، ثم استخدمتهم فى العراق وفرنسا، كما تصدت القوات المصرية للأتراك وطردهم من سيناء ، بل كان للقوات المصرية دور كبير فى فشل الحملة التركية على قناة السويس فى فبراير ١٩١٥ من خلال فرقة العمال وفرقة الجمالة المصرية – ومساعدة القوات الإنجليزية فى تمهيد الطرق وعبور سيناء إلى فلسطين.

وفى اليمن حيث الحكم العثمانى ، سارعت بريطانيا بالاتفاق مع الأدريسى فى أبريل ١٩١٥ ، وتوجه أسطولها لمساندة تحركات الأدارسة ضد الأتراك فى المنطقة الساحلية حتى تضمن عدم التعرض لطريقها البحرى إلى الهند ، ولمحطة الفحم الهامة فى عدن ، وللقاعدة البريطانية الحربية هناك ، وعدم سيطرة الأتراك على جزر مدخل البحر الأحمر مثل جزيرة بريم ،

وتجدر الإشارة إلى أن القوات العثمانية النظامية التى هاجمت لحج قدرت بنحو ألفين وثلاثمائة جندى معظمهم من الترك والسوريين مقسمة إلى ثلاثة آلايات ، ولما كان العرب هناك يدينون لبريطانيا ويجب عليهم تقديم المساعدات للإنجليز ، فقد ضايق الأدريسى فى عسير انتصار الترك فى لحج لأنه كان يخشى أن يؤدى ذلك إلى انتصارهم ورفع معنوياتهم فى الجبهة الشمالية فى اليمن حيث يقوم بدوره فى محاربتهم لصالح الإنجليز ٠

حاول الأتراك أن يجذبوا الشريف حسين إلى جانبهم عن طريق التأكيد بأن الأمانى التركية العربية غير متعارضة ، ولكن كان هذا قبل حملة جمال باشا على قناة السويس ، وبعد فشل هذه الحملة تحرك الأتراك إلى نوع من التهور إزاء العرب وشنقوا عدداً من زعمائهم فى عام ١٩١٥ رغم المجهودات التى بذلها الشريف حسين لتخفيف حكم الإعدام ، وانتهز الإنجليز الفرصة ليعلنوا أنهم يقاتلون الأتراك من أجل تحرير العرب.

تعاقدت بريطانيا مع العرب من خلال مراسلات : الحسين مكماهون ، (بين الشريف حسين وسير هنرى مكماهون ) والتى بدأت ١٤ يوليو ١٩١٥ وحتى ١٠ مارس ١٩١٦ فقد شجعت قيام الثورة العربية ضد الأتراك وغذتها ومولتها كى تساعد الحلفاء على كسب الحرب ، فقد كانت الفكرة المسيطرة على الحلفاء " لا شئ يهم سوى أن نكسب الحرب " ، وذلك بعد أن وعدت الشريف حسين باستقلال البلاد العربية والاتفاق على الحدود التى تشملها ،

فمن ضمن ما ذكره مكماهون للشريف حسين " أن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لى أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى إبرام أى صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك " وقد وافق الشريف حسين على ذلك وأعلن الحرب على تركيا ، بل وقام بإلقاء المنشورات المحرضة للضباط والجنود العرب العاملين فى الجيش التركى فى فلسطين عام ١٩١٥ لقتال القوات التركية بدلاً من قتال العرب والحلفاء ، وفى نوفمبر ١٩١٦ زار عدن مبعوث مكى وطالبوا بريطانيا بالدفاع عن لحج ضد عدوان الترك وحتى يجذب تأييد العرب لمواجهة مزاعم الدعاية التركية الألمانية ، كما أن الشريف حسين كان يخشى أن يؤدى فقدان الثقة فى بريطانيا إلى عدم تأييد العرب لثورته ضد الدولة العثمانية ، ولم يعلم الشريف حسين والعرب أنها خدعة حتى وقعوا فى شرك الاستعمار البريطانى الفرنسى .

الجدير بالذكر أنه فى نفس العام ١٩١٥ وقعت إتفاقية سرية فى لندن بين إنجلترا وفرنسا وروسيا ، تعترف فيها بأن تكون منطقة المضايق وما يحيط ها من أراض من نصيب روسيا بعد نهاية الحرب ، وذلك ترغيباً لها على مواصلة القتال إلى جانب الحلفاء ، كما عقد الحلفاء معاهدة سرية ثانية فى مايو ١٩١٦، وهى التى عرفت باسم معاهدة سايكس – بيكو ، وهى الاتفاقية التى أخذت شهرتها من اسمى الرجلين اللذين انتدبا للتفاوض

على بنودها وهما السير مارك سايكس Sir Mark Sykes عن بريطانيا ، والمسيو جورج بيكو M. George Picot عن فرنسا ، وكانت هذه الاتفاقية عبارة عن مذكرات تبادلتها دول الوفاق الثلاثى – بريطانيا وفرنسا وروسيا – بخصوص نصيب كل منها فى أملاك الدولة العثمانية إذا ما انتهت الحرب لصالحهم ، وقد جرت المباحثات المبدئية الخاصة انجلترا وفرنسا فى لندن فى ربيع ١٩١٦ بين كل من سير إدوارد جراى Sir Edward Grey وزير الخارجية البريطانية والمسيو بول كامبون M. Paul Cambon السفير الفرنسى فى لندن ، ثم استكملت المباحثات فى القاهرة بين جورج بيكو ومارك سايكس واشترك فيها قنصل روسيا الذى طلب السفر إلى بطرسبرج لعرض المشروع على الحكومة الروسية ، وقد نصت المعاهدة على أن تكون حصة روسيا من أملاك الدولة العثمانية " القسطنطينية وجزءاً من الأرض على ضفتى البسفور وقسماً كبيراً من أراضى شرق الأناضول يكون الولايات الأربع للحدود الروسية العثمانية " ، ونصيب فرنسا جانب كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق ، وأما إنجلترا فلها البلاد الواقعة بين الخليج العربى والمنطقة الفرنسية ثم حيفا وعكا ، وتوضع فلسطين تحت إشراف دولى

كشف النقاب لأول مرة عن هذه المعاهدة السرية عندما عثر عليها فى ملفات وزارة الخارجية الروسية بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، وقد أصدر وزير

الخارجية أمراً بنشرها ، فتم نشر المعاهدات المتعلقة منها باستانبول وآسيا الصغرى ، وقد أجاب بلفور وزير الخارجية البريطانى على الأسئلة التى وجهها إليه مجلس العموم البريطانى ، حيث قال : " ما كان ينبغى نشر هذه الوثائق التى نحن بصددها ، هذا وانى لا أنوى إعادة نشرها " ، ثم أضاف " لا شك فى أن عدداً من هذه الوثائق ليس له أية علاقة هذه البلاد ، إنما يتعلق بشئون حكومات حلفائنا ".

الجدير بالذكر أن جمال باشا قائد القوات العثمانية فى الشام أرسل نص الاتفاقية السرية ( سايكس – بيكو ) فى كتابين سلم أحدهما إلى الأمير فيصل بن الشريف حسين والآخر إلى جعفر باشا العسكرى مقترحاً عقد صلح منفرد مع العرب ، فأرسلهما الشريف حسين إلى المفوض السامى البريطانى فى القاهرة ، فكان الرد ( أن هدف الأتراك بذر بذور الشك والريبة بين الحلفاء وبين العرب الذين يكافحون تحت لوائكم والمكافحين ضد المظالم العثمانية ، وأن الحكومة البريطانية تؤكد تمسكها بتعهدها المتعلق بتحرير الشعوب العربية ) يلاحظ أن بريطانيا مازالت تسوف لتكسب العرب إلى جانبها رغم غدرها بهم من خلال المعاهدة السرية المذكورة.

وفى مصر قام فون كريستشاتاين بشن هجومه الأخير على قناة السويس فى صيف ١٩١٦ ، ولكنه تعرض للهزيمة ، وأصبحت القوات البريطانية التى صارت تحت قيادة الجنرال موراى فى وضع يسمح لها بطرد

الأتراك من سيناء ، وبحلول ديسمبر ١٩١٦ وصلت إلى العريش ومنها إلى غزة .

ولكن بخروج روسيا من الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٧ استبعدت من الاتفاقية ، وأعلن القائمون على الثورة البلشفية فى روسيا أن العهد الجديد قد نفض يده من كل المعاهدات العدوانية التى عقدتها روسيا القيصرية مع غيرها من الدول الأجنبية ، وأن هذا العهد يريد إقامة علاقات تعاون مع الشعوب واستنكار اغتصاب الدول الكبرى لأراضى الدول الصغرى وبالتالى تنازلت روسيا عن نصيبها فى ممتلكات الدولة العثمانية بمقتضى معاهدة لندن السرية فى عام ١٩١٥ ، وانفردت إنجلترا وفرنسا بالتقسيم .

وفى بداية عام ١٩١٧ ، توقف التقدم الألمانى ضد الحلفاء ، وكانت الحروب مشتعلة على كل الجبهات ، وكان العثمانيون يحاربون فى تسع جبهات وهم فى حالة يرثى لها من قلة الزاد والعتاد ، فى الوقت الذى كان فيه حلفاء الدولة العثمانية لا يقدمون ما وعدوا به ، ذهب وفد عثمانى للقاء السلطان السابق ( عبدالحميد ) وطلب منه النصيحة بما يجب عمله ، فكان رد السلطان : " إن القضايا التى تحدثتم فيها تعتبر أموراً طبيعية لطريق منفرد تم السير فيه ، لقد تعقبتم – من بعدى – سياسة مختلفة تماماً عن سياستى ، جعلتم مشكلة البوسنة والهرسك تخرج من إطارها الذى رسمته أنا لها وهو أنها مشكلة نمساوية – روسية ، فجعلتموها مشكلة عثمانية –

روسية ، وأخرجتم مشكلة كريت من كونها مشكلة إنجليزية – روسية ، وجعلتموها مشكلة عثمانية – يونانية ، ووقعتم فى خطر كبير عندما أزلتم بأنفسكم الخلاف بين الكنيستين اليونانية والبلغارية ، وبذلك أوجدتم الفرصة أمام تحالف البلقان ، وجعلتم الباب مفتوحاً لكى تقوم كل من الصرب والجبل الأسود وإيطاليا بإثارة الألبان الذين حافظوا على علاقاتهم بالدولة العثمانية ببعض الامتيازات الخاصة ، وجعلتم حق القرار فى مجلس " المبعوثان " مسرحاً لنتائج خطيرة من شأنها تقديم الإمكانات الحيوية لاتحاد غير المسلمين ، وبكل هذه الأخطاء خرج محور التوازن السياسى الذى تستند إليه الدولة عن مجراه ، ولو لم تحدث حرب البلقان لما حدثت الحرب العالمية الأولى " ، وقال : " إن المنتصر فى هذه الحرب هو الجانب الذى يملك القدرة البحرية الحربية ، والمصادر الطبيعية لدى الألمان محدودة ، وحدودنا طويلة ولذلك نجد مشقات كثيرة فى الدفاع عنها ، ذلك لأننا نستورد السلاح واحتياجاته ، وإننا الآن مجبرون على أن نتلقى هذه النتائج التى ظهرت بالفعل ولا بد من التسليم باضطرارنا لهذا ، ثم ما معنى استشارتكم لى بعد أن تكدست النتائج التى أسفرت عنها الأحداث السابقة.

الجدير بالذكر أن الضباط العرب العاملين فى الجيش العثمانى انضموا إلى قوات الثورة العربية ، وذلك لأن جمال باشا قام بسبب إخفاقه فى حملته على مصر بأن ألقى القبض على عدد كبير من الناس وقدمهم إلى محكمة

عسكرية فى عالية بجبل لبنان وحكم على ١٣ منهم بالإعدام فى أغسطس ١٩١٥ ببيروت ، وفى ٥ أبريل ١٩١٦ قام جمال باشا بأعدام ٢١ شخصية منهم سبعة فى دمشق و١٤ فى بيروت من بينم عبدالحميد الزهراوى عضو مجلس الأعيان الذى ترأس المؤتمر العربى فى باريس ، مما عجل بصيحة العرب للثورة العربية ضد العثمانيين ، وقد وصلت الضباط العرب المنضمين للثورة بعض المعدات من الحلفاء بعد أن أدركوا أهمية الثورة لهم ، حيث قيدت هجوم الجيوش العثمانية على قناة السويس ، كما حالت دون نجاح الحملة العثمانية الألمانية إلى جنوب الجزيرة ، وواصلت الجيوش العربية تقدمها حتى وصلت إلى العقبة فى يوليه ١٩١٧ .

إلا أن الثورة العربية خابت فى تحقيق أهدافها بإقامة الدولة العربية المستقلة ، وذلك بسبب تآمر بريطانيا وفرنسا عليها بعملية التقسيم السرية سالفة الذكر وفى نفس الوقت حدثت نكبة الدولة العثمانية فى حرب البلقان أمام الدول الأربع ( اليونان وبلغاريا والجبل الأسود والصرب ) ، وعلى حد قول السلطان السابق عبدالحميد : " أن الذى هزمنا ليس الدول الأربع ، وإنما تدخل الجيش فى السياسة " ، وقال : " أن سقوط سالونيك يعنى سقوط إستانبول ، وهذا يعنى ضياع الدولة العثمانية ".

ناهيك عن وصول نبأ هدنة مودروس ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ ، حيث رفع قومندان باب المندب هذا النبأ الوارد من حاكم جزيرة ميون البريطانى فى

حينه إلى سعيد باشا قومندان لحج ليتخذ الإجراءات اللازمة تبعاً لما يراه ، ونتج عن ذلك انسحاب الدولة العثمانية من اليمن نهائياً فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبالتالى خرجت الإمبراطورية العثمانية من الحرب إثر هدنة مودروس ، ولم يكن فى مقدور طلعت وأنور ، اللذان عقدا هذه المعاهدة ، أن يقوما بمفاوضات الصلح ، لأنهما كانا فى أعين الأعداء المسئولين الرئيسيين عن دخول تركيا الحرب ، أما فريد باشا الذى قبض على أزمة الحكم فى ٤ مارس ١٩١٩ بيد أن ثقته بمبدأ ويلسون الذى نص على أن تتمتع الأجزاء التركية من الإمبراطورية العثمانية بالسيادة الكاملة ما لبثت أن منيت بخيبة أمل فاضحة ، وفى ١٥ مايو ١٩١٩ احتل اليونان أزمير بالاتفاق مع الحلفاء. إلا أنه وعلى الرغم من تخوف ألمانيا من خزلان إيطاليا لها ، ففى مايو ١٩١٥ دخلت إيطاليا الحرب ضد النمسا ، بعد أن كانت قد أعلنت حيادها عند نشوب الحرب ، فقد أغراها الحلفاء على الانضمام إليهم لتخفيف الضغط عن روسيا بالاشتباك مع النمسا ، وعقدت معاهدة معها كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا ( معاهدة لندن ) التى تقضى بإعطاء إيطاليا منطقة الترنتينو Trentino والتيرول الجنوبى حتى ممر برنر Prenner وتريستا Trieste وشبه جزيرة استريا Istria وشمال دلماشيا ، وميناء فالونا Valona فى ألبانيا وجزر الدوديكانيز Dodecanese فى بحر إيجه Aegean Sea ، كما سمح لها بتوسيع ممتلكاتها فى أريتريا والصومال ولكن إيطاليا واجهت بعد هجومها على

النمسا حملة مشتركة من الدول المركزية بقيادة القائد الألمانى " بيلوف Below " وهزمت إيطاليا هزيمة شنعاء فى كاربوريتو Carporetto فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٧

وكان الدور الثانى من أدوار الحرب حملة مدبرة تبييراً أقل إحكاماً ترمى إلى تطويق ميسرة جيوش الحلفاء والاستيلاء على ثغور القنال الإنجليزى إلى الساحل فيما يشبه السابق ، ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق عظيم فى المدافع والعتاد محاولين إنزال ضربة قوية بالإنجليز بالقرب من " إيبر Ipres " ومنع المدد الآتى من إنجلترا إلى فرنسا ومن ثم امتد كل من الجيشين غرباً وكادوا أن يحدثوا ثغرة فى صفوفهم لولا أن صمد لهم الإنجليز.

وشن الألمان على الفرنسيين هجوماً هائلاً دام طيلة النصف الأول من عام ١٩١٦ حول فردان ، ولكن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدتهم القوات الفرنسية بعد أن تقدموا فى الخطوط الفرنسية بضعة أميال ، وتعادلت الخسائر الفرنسية خسائر الألمان ، وكان المشاة الفرنسيون يرددون قولهم " لن يمروا " وبعد أن فشل الألمان فى اختراق جبهة الحلفاء الغربية ، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلزمه من عتاد ومواد ، عاود الألمان التفاتهم إلى روسيا ، وأصابوا الروس بسلسلة من الضربات الفادحة استحدثوا فيها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية ، فهزموهم فى جنوب الجبهة الروسية أولاً ثم فى شمالها

## الفصل التاسع

## العثمانيون والعرب. فتح أم احتلال؟

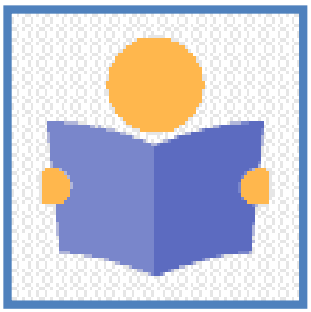

على مدار أربعة قرون استولى فيها العثمانيون على معظم البلاد العربية، وتأتي مصرنا الغالية على رأس تلك الدول، سرقوا ثروتها، وقتلوا شعوبها، وتركوها وهى خربة، بعدما أصبحت محتلة من جانب عدو آخر، بسبب ضعفهم وأطماعهم، وتركونا نحن العرب أمام شبح الاحتلال الذى دمر بلادنا بعدما بدد العثمانيين ثرواتها.

الحقيقة أن الجانب التركى لم يخسر كثيرا فى معاركه، العرب هم من خسروا، سقط فقط ديكتاتورية من أكثر الديكتاتوريات دموية فى التاريخ، تركيا أصبحت دولة مستقلة، قام مصطفى كمال أتاتورك بتأسيس جمهوريته، لكن عانينا نحن بسبب فساد حكام العثمانيين علينا، والكوارث التى فعلوها، كما قالر الباحثون من قبل، ومنها:

## موقف ( جمال حمدان ) من العثمانيين[٢]

الجغرافي الرائد جمال حمدان

رصد الجغرافي المصري الرائد/ جمال حمدان في العديد من كتاباته التاريخ الأسود للعثمانيين في البلاد العربية والإسلامية منذ أقدم العصور، ومن أشهر تلك المؤلفات؛ "استراتيجية الاستعمار والتحرير" و"شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان"، و"شخصية

---

(٢) https://3thmanly.com/ar/article/همج-بلا-تاريخ-جمال-حمدان-يفضح-تاريخ-الأتراك-الأسود؟fbclid=IwAR0UcoOvgWAvjP_TE48O6olSiO8lUd_nQu9CODScb0fHcoWzoFzYtg6i5lبت

االريخ ١٠/ ١/ ٢٠٢٠م

مصر[٣] وتعدد الأبعاد والجوانب" و"مذكرات في الجغرافيا السياسية."

- أكد جمال حمدان في كتابه "استراتيجية الاستعمار والتحرير" أن الأتراك كانوا وبالاً على الدولة العباسية، وسبب ضعفها وسقوطها في النهاية، يقول: "كانت الموجة الغزنوية التركية أول ما وصل المنطقة العربية من برابرة العالم الإسلامي، في القرن الـ١١، وانتزعت فارس وما جاورها، ثم بدأت قوة الأتراك السلاجقة الوافدة من آسيا تتسلل وتظهر في الدولة العباسية، حتى استطاعوا أن يقتطعوا منها أجزاء كثيرة في غرب آسيا، فأقاموا قاعدتهم في كرمان وهمدان ثم في آسيا الصغرى." ويضيف :"انقلب الأتراك السلاجقة على الحكم العربي في بغداد ودمشق، حتى امتد سلطانهم إلى الشام والأراضي المقدسة، لكن قوة السلاجقة لم تلبث أن تضعضعت تحت طرقات المغول في القرن الـ ١٣ على يد جنكيز خان، وفي الوقت

---

[٣] ( شخصية مصر، "دراسة في عبقرية المكان"). والذي كان عبارة عن مقالات كُتِبت في مجلة "المجلة" ثم في مجلة "الهلال"، ثم صدرت في صبيحة هزيمة ٥/ ٦/ ١٩٦٧م على هيئة كتاب واحد، إلا أن أستاذنا الراحل جعل منها موسوعة مكونة من مليون كلمة في ( ٤٠٠٠) صفحة من ألف مرجع -عربي وأجنبي- في ( ٤) أجزاء.

الذي كان العالم الإسلامي يواجه خطر الحروب الصليبية، خرج تيمورلنك من عاصمته سمرقند ليكتسح فارس والعراق وشمال سورية حتى دمشق، ولكنه عجز في التقدم جنوبا بفضل المقاومة المصرية."

- تابع عالمنا الجليل: "الأتراك قوم همج، لم يتحدوا في دولة متحضرة، فهم يحاربون بعضهم من أجل الكلأ والمراعي، وفي مطلع القرن الخامس عشر أظهر الأتراك بربريتهم وغباءهم السياسي، حينما اتجه تيمورلنك إلى الأناضول لمحاربة العثمانيين، وانتصر تيمورلنك على العثمانيين في معركة أنقرة عام ١٤٠٢، حين انكسرت قوات بايزيد الأول وسقط في الأسر." كما يقول أيضاً:"أن الاستعمار الديني المسيحي لم يكد ينحصر عن الساحل الجنوبي حتى ورثه استعمار ديني آخر "وإن اختلف الدين"، فلقد جاء الاستعمار التركي استعماراً سياسياً بغطاء ديني". ويمكن القول أن أ.د. جمال حمدان يشير بشكل أو بآخر إلى أن "الدولة العربية انتهت على يد الغزو التركي، وليس الغزو الصليبي، بعدما جاءوا للبلاد العربية في مسوح الدين الإسلامي وتحت قناعه، فهو نوع من الاستعمار الديني، ولولاه لعد مماثلا للغزو المغولي الوثني الذي سبقه."
- كما أشار أ.د. جمال حمدان في موسوعته الأعظم "شخصية مصر؛ دراسة في عبقرية المكان" ( لقد كانت المواجهة بين المماليك

والعثمانيين لقاء بين حضارة مستقرة عريقة وبين غزاة أشبه بمتبربري الامبراطوريات القديمة).

- استطرد عالم الجغرافيا قائلا :"نوايا الأتراك السيئة تجاه البلاد العربية الإسلامية تأكدت في القرن السادس عشر، حينما اتجهت الدولة العثمانية إلى الشرق العربي، واتجه الزحف التركي إلى مصر رأسا، عن طريق سورية التابعة للدولة المملوكية المصرية، التي أصبحت مفتاح المنطقة العربية، خاصة بعد أن انتقل ثقل الدولة العربية الإسلامية كاملا ونهائيا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول." ويضيف: "كانت قوات سليم الأول أضعف من أن تنتصر على المماليك في معركتي مرج دابق والريدانية، لكنهم استخدموا طريقتهم التركية الأصيلة، فعن طريق الرشوة والخيانة استطاعوا استمالة خاير بك وجان بردي الغزالي، وسقطت مصر في عام ١٥١٧ في يد رعاع الاستبس."
- رصد صاحب "شخصية مصر" الطابع الاستعماري للاحتلال التركي الذي نهب ثروات البلاد العربية، لتلبية نفقات السلاطين والحرملك وسهرات الفجر والمجون، بقوله: "كل مظاهر الاستعمار الاستغلالي الابتزازي لا تنقص الدولة العثمانية، فقد كانت تركيا دولة استعمارية تعتصر موارد وخيرات الولايات بلا مواربة، لتحشدها في خزانة السلطان، الذي ينفق منها على نزواته الشاذة."

- فضح المؤلف سياسات الأتراك البربرية في حكم البلاد العربية، صاحبة التاريخ والحضارة العريقة، وطبقوا في حكمهم السياسي طريقتهم الاستبسية في معاملة الحيوان، هم انتقلوا من رعي قطعان الحيوان إلى رعي قطعان البشر، فكما يفصل الراعي بين أنواع القطعان، فصل الأتراك بين الأمم والأجناس المختلفة، عملا بمبدأ فرق تسد، وكما يسوس الراعي قطيعه بالكلاب، كانت الإنكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية، وكما يحلب الراعي ماشيته، كانت الإمبراطورية بقرة كبرى عند الأتراك للحلب فقط
- يلقي جمال حمدان الضوء على قضية سياسية مازالت ساخنة ومطروحة حتى يومنا هذا، وتنبأ العالم الشهير بنزعة الكراهية التي تنتهجها تركيا تجاه مصر، حينما تساءل في كتابه "مذكرات في الجغرافيا السياسية" قائلا :"القرن الـ ٢١ لمن؟، فالعالم الإسلامي يتنازعه أكثر من قوة دولية متنافسة، مصر وتركيا وإيران، لكن مصر هي الأقدر على زعامة المسلمين، لأنها رأس المسلمين والعرب، بحكم تاريخها العريق، وصدارتها في المنطقة، فهي قدس أقداس السياسة والجغرافيا السياسية، وهو ما سيجلب عليها عداء أنقرة وطهران."
- رد حمدان على ادعاء تركيا للتحضر، ومنافستها لمصر في المنطقة "ليس أكثر من تركيا نقيضا تاريخيا وحضاريا لمصر، فتركيا بلا

تاريخ، بلا جذور جغرافية، انتزعت من الاستبس كقوة شيطانية مترحلة، واتخذت لنفسها من الأناضول وطنا بالتبني، وهي بلا حضارة، بل كانت طفيلة حضارية استعارت حتى كتابتها من العرب."

- يقول جمال حمدان في وصف الدولة المشوهة، ومنزوعة التاريخ: " إنها تمثل قمة الضياع الحضاري، في تغيير جلدها أكثر من مرة، الشكل العربي استعارته ثم بدلته باللاتيني، والمظهر الحضاري الآسيوي نبذته، وادعت الوجهة الأوروبية، هي كغراب يقلد مشية الطاووس، وعلى النقيض تماما من مصر، ذات التاريخ العريق والأصالة والحضارة.
- تابع صاحب "مذكرات في الجغرافيا السياسية" أن "مصر ظلت وستظل تمثل للأتراك كل العقد، وليس عقدة وحيدة، فهي الدولة التي يحتسب عمرها بعمر هذا الكون، بينما تركيا بلا تاريخ أو هوية، ويرجع تاريخ العداء التركي لمصر منذ القرن الثالث عشر، وبعد احتلال مصر عام ١٥١٧، اتبعت الدولة العثمانية سياسات قمعية تجاه الشعب، تعويضا لعقدة النقص التي يشعر بها الأتراك تجاه المصريين."
- أوضح مؤلف "عبقرية المكان" أن "جيش مصر العظيم يمثل أبرز العقد للأتراك، فقد أعطى دروسا قوية في الفنون العسكرية للجيش التركي، وسحقه أكثر من مرة في معارك ضروس، والبداية كانت

عندما سحق الظاهر بيبرس الأتراك المتحالفين مع المغول في الأناضول، في معركة الأبلستين عام ١٢٧٧، وتجدد الصدام في عام ١٤٨٨ عندما قاد السلطان قايتباي جيوشه وهزم السلطان بايزيد الثاني في معركة أضنة."

أصبحت مصر القوة الضاربة في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر، على يد مؤسس الأسرة العلوية، ويضيف: "عندما قرر محمد علي باشا ضم الشام إلى الأراضي المصرية في عام ١٨٣١، وزحف الجيش المصري وحاصر عكا، المحصنة بأسوارها العالية، ونجح في كسر جيوش السلطان محمود الثاني، وسيطر على فلسطين ودمشق، ثم التقى بالجيش العثماني من جديد عند أسوار مدينة حمص ولقنه درسا قاسيا، واستولى على حمص، وباقي المدن السورية." وتابعت مصر ضرباتها المتواصلة للجيش التركي بعدها بـ ٨ سنوات، يقول :"ولن ينسى الأتراك ما فعله الجيش المصري بجيوش السلطان محمود الثاني في معركة نصيبين عام ١٨٣٩، عندما لقن نظيره التركي درسا في فنون الحروب الحديثة، مستخدما قوته المفرطة، حينما أفنى كل الجيش العثماني في تلك المعركة، وأسروا ١٥ ألف جندي وضابط، واستولوا على كل الأسلحة والمؤن."

ويضيف حمدان: "وعندما بلغ السلطان العثماني أمر الهزيمة المنكرة، وفناء جيشه مات حزنا، ولم يكتفِ الجيش المصري بسحق العثمانيين، وإنما حاصر إسطنبول، واستسلم الأسطول التركي لمصر في الإسكندرية، وأصبحت الدولة

العثمانية بلا سلطان أو جيش أو حتى أسطول، ولولا التدخل الأوروبي، لكانت تركيا من بين ممتلكات مصر."

وتحت عنوان "دنيا العالم الإسلامي" هاجم جمال حمدان جماعة الإخوان المسلمين الذين وصفهم بأنهم "عبئا على الإسلام والمسلمين"، واتهم الأحزاب الدينية بأنها "عصابات طائفية، مافيا الإسلام، المطاريد، دراويش القرن الـ٢٠"، واشترط لتقدم مصر والعرب والعالم الإسلامي "شنق آخر الجماعات الإسلامية بأمعاء آخر إسرائيلي في فلسطين."

لم يكن جمال حمدان يدري أن تركيا ستتخذ من جماعة الإخوان المسلمين أداة لمحاربة البلاد الإسلامية في الشرق الأوسط، خصوصا بعد وصول حزب العدالة والتنمية المعروف بميوله للجماعة الإرهابية، واستخدمها إردوغان لاحتلال البلاد العربية في القرن الحادي والعشرين، في محاولة منه لتكرار تجربة سليم الأول، حين خدع العرب والمسلمين واحتل أرضهم تحت ستار راية الدين الإسلامي.

**إسرائيل التركية:**

فضح جمال حمدان أكذوبة أن اليهود الحاليين هم أحفاد بني إسرائيل، الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وأثبت في كتابه "اليهود أنثروبولوجيا" بالأدلة العملية أن "اليهود المعاصرين يرجع أصلهم إلى إمبراطورية الخزر، التي قامت بين بحر قزوين والبحر الأسود، ثم اعتنقت الديانة اليهودية في القرن الثامن الميلادي."ويضيف: "إسرائيل ليست دولة سامية، وسكانها

ليسوا يهودا، ولكنهم متهودون، أصولهم من الترك الرعاع، والإمبراطورية العثمانية كانت آخر طبعة خزرية استعمارية، خرجت من رحم الدولة السلجوقية التي أسسها يهود الخزر." لم يكن جمال حمدان يعلم أن رأيه في دولة إسرائيل المتحالفة مع تركيا سيكون سببا في اغتياله في شقته عام ١٩٩٣، ذلك التحالف الذي يعود للأجداد والنسب التاريخي، ثم لتشابك المصالح السياسية والعسكرية والاقتصادية في الشرق الأوسط، لكنها يد الخيانة الآثمة التي جمعت إسرائيل وتركيا هي نفسها التي قتلت العالم الجغرافي الكبير جمال حمدان.

- دخول العثمانيون الحرب بجانب ألمانيا، ومبادرتهم بالهجوم على روسيا، ثّم بريطانيا فى مصر، أّدى إلى هجوم بريطانيا على العراق، والهجوم على الشام من ناحية مصر، ودّعم الثورة العربية الكبرى، ثّم التنسيق بين وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا وروسيا حول تقسيم أملاك العثمانيين، بعد هزيمتهم فى الحرب، وهى الاتفاقية التى عُرفت باسم سايكس–بيكو، بعد انسحاب الروس منها، عقب قيام الثورة البلشفية العام ١٩١٧>
- بهزيمة العثمانيين وقعت البلاد العربية التى كانت تحت سيطرتهم تحت الاحتلال البريطانى والفرنسي، وتّم وضع فلسطين تحت

الانتداب البريطاني، ممّا أدّى إلى تضاعف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لتبدأ مأساة ضياع فلسطين، وظهور الكيان الصهيوني.

- لم ينتهِ عهد الاحتلال العثماني-التركى إلّا بكارثة ضياع فلسطين، فعلى الرغم من إدراك العثمانيين للمخاطر المحيطة بهم، إلّا أنّهم لم يعملوا على حلّ الأزمة مع الشعوب غير التركية، للارتقاء بحياتها بعد أنّ عانت قروناً من الظلم والتخلّف تحت حكمهم، ولم يدركوا أنّ عصور إمبراطوريات الغزو قد ولّى، وأن السيطرة العسكرية وحدها لم يعد لها مكانٌ فى عالم القرن العشرين، وأن من حقّ كلّ شعب تقرير مصيره، وتحقيق تطلّعاته نحو الحياة الكريمة والعدالة والحرية.
- ضياع فلسطين: يتحمّل العثمانيون المسؤولية الأولى عن ضياع فلسطين، فلولا قرارهم بدخول الحرب العالمية الأولى لما صدر وعد بلفور، الّذى كان مكافأةً للصهيونية من ناحيةٍ، وعقاباً للعثمانيين من ناحية أخرى، ولا وقعت فلسطين بيد البريطانيين، ولا مُكّن للصهيونية العالمية تنفيذ مخططاتها، لكنّ أحلام العظمة والطغيان التركية كانت أهم من ضياع البلاد العربية.
- علاوةٌ على ذلك فقد العرب عشرات آلاف الضحايا من المجنّدين فى جيش الأتراك، وعانوا من مجاعة الشام العام ١٩١٥ التى حصدت أرواح نصف مليون عربي، بحسب كتاب "يقظة العرب-تاريخ حركة العرب القومية" لجورج أنطونيوس.

- مذابح جماعية: ويحكى ابن إياس فى "بدائع الزهور في وقائع الدهور" ارتكب العثمانيون خلال فترة حكمهم فظائع إنسانية، فقد قتلوا الآلاف من المصريين والعرب فى مذابح جماعية، وعلقوا جثث قادة المماليك فى الشوارع، بينهم طومان باي، ونهبوا المنازل والمتاجر، ومثلوا بجثث القتلى. كما أن، كثيرا من آثار حكم العثمانيين بقى على المنطقة العربية حتى الآن، ومنها عدم توافر مقومات الدولة فى منطقتنا خلال الحقبة العثمانية، وعدم فهم الحكام العثمانيين لمهام الحكم، فقد اهتموا بالمدن الساحلية فقط والطرق الخاصة بالتجارة، وتركوا باقى المدن كما هى دون تطوير أو رعاية، وعينوا رؤساء القبائل لإدارة شؤون المناطق دون نظام إدارى واضح ومحدد، فتخلفت بلادنا كثيرا ولم يعرف المواطنون الخدمات مثل الصحة والتعليم.
- ضرائب: ولعل مفهوم الحكام العثمانيين للدولة كان مقتصراً على الدفاع عن الولايات والأمن الداخلى وجباية الضرائب، حتى المرور بالطرق والشوارع فرضوا عليه ضريبة كانت تسمى" الحلوان" وفرضوا ضرائب أخرى لا تحصى ولا تعد منها ضريبة"الميري" وهذه تحصل بنسبة ٢٢% لحساب السلطان، وضريبة "الكشوفية" وقدرها ١٦%، وكان الملتزم وهو شخص يتم تعيينه لتحصيل الضرائب، يقوم بدفع هذه الضرائب للحكومة مقدما، ثم يقوم بتحصيلها بأضعاف قيمتها

من الأهالي، مما أدى لفقر الشعب وتزايد الجهل والمرض ونقص الخدمات وشح الموارد.

بعد قراءة هذا الفصل من الدراسة، والاستماع إلى المناقشات العليمة التي تمت في المحاضرات. كيف يمكن وسم الحكم العثماني لمصرنا الغالية.؟ هل كان فتحاً كما يردد البعض؟ أم كان احتلالاً أخَّر البلاد وأرهق العباد؟
في إجابتك جنب العاطفة، وقُم بإعمال العلم والأسباب والعقل، حتى يتسنى لك الإجابة على هذا السؤال المهم.

# الفصل العاشر

# قضايا عربية مهمة

**جامعة الدول العربية**

سعت بريطانيا الى احتواء المد القومي لما يحقق مصالحها في المنطقة فاتجهت الى مصر لاقناعها بانشاء مشروع اتحادي يجمع الحكومات العربية المستقلة( العراق- السعودية- اليمن-الاردن- لبنان- سوريا)، فالتقى النحاس بوفود تلك الدول في نهاية عام ١٩٤٤ لعرض الموضوع فظهرت ثلاث اتجاهات رئيسية، دعى الاتجاه الاول الى مشروع سوريا الكبرى بزعامة عبدالله بين الحسين ملك الاردن يدعمه نوري السعيد رئيس وزراء العراق، والاتجاه الثاني دعى الى تطبيق مشروع الهلال الخصيب بزعامة العراق، اما الاتجاه الثالث فكان يدعو الى وحدة او اتحاد اشمل واكبر ليضم مصر والسعودية واليمن فضلا عن اقطار الهلال الخصيب لكنهم اختلفوا فيما بينهم حول شكل الاتحاد( فدرالي) ام ( كونفدرالي). ومنذ عام ١٩٤٣ قامت مصر بإجراء مشاورات رسمية مع العراق وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان واليمن وهى الدول العربية المستقلة حتى ذلك الوقت ، كانت هذه المشاورات بقصد البحث فى أمر

إقامة اتحاد فيما بين هذه الدول ، وانتهت المشورات بتوقيع بروتوكول الاسكندرية فى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ ، وفى ٢٢ مارس ١٩٤٥ تم التوقيع على ميثاق الجامعة العربية وصدقت عليه الدول العربية السبع التى اشتركت فى المشاورات. ومن شروط العضوية فى جامعة الدول العربية : ( شرط الاستقلال وشرط العروبة ) بمعنى أن تكون دولة عربية وأن تكون دولة مستقلة ، وأن يوافق مجلس الجامعة على قبولها ، وعلى مجلس الجامعة ألا يحرم دولة عربية مستقلة من الانضمام للجامعة. ولقد تم قبول ست دول جديدة فى الجامعة العربية وهى ليبيا عام ١٩٥٣ والسودان عام ١٩٥٦ والمغرب وتونس عام ١٩٥٨ والكويت عام ١٩٦١ والجزائر ١٩٦٢ ، وحتى هذا التاريخ ( ١٩٦٢ ) أصبح عدد الأعضاء فى الجامعة ١٢ دولة .

أما أهداف الجامعة العربية فهى كالتالى :١ – صيانة استقلال الدول الأعضاء.٢ – المحافظة على السلام والأمن العربى. ٣ – تحقيق التعاون العربى فى الشئون السياسية وغير السياسية. ٤ – النظر فى مصالح المجتمع العربى بصفة عامة.

فروع الجامعة العربية – فروع أصلية وهى : مجلس الجامعة ويعتبر الفرع الأساسى للجامعة وهو المشرف الأعلى على شئونها ويتألف من

ممثلى الدول المشتركة فى الجامعة ، وينعقد المجلس فى دورات عادية مرتين فى كل عام مارس وسبتمبر ، كما يعقد دورة غير عادية بناء على طلب دولتين من الأعضاء ، والمقر الدائم لانعقاد المجلس بالقاهرة ويكون فى غير القاهرة إذا حضره ممثلون لأغلبية الدول الأعضاء ، ويحضر الأمين العام أو من ينيبه من مساعديه جلسات المجلس ، ويقوم المجلس بصفة عامة بالإشراف على تحقيق أهداف الجامعة. ومن الفروع الأصلية : اللجان الفنية وتقوم بإعداد مشروعات اتفاقيات بشأن الموضوعات التى تدخل فى اختصاصها وتعرض على مجلس الجامعة لإقرارها مثل اتفاقيات اتحاد البريد واتحاد المواصلات والمنظمة العربية للعلوم الإدارية واتحاد اذاعات الدول العربية وكذلك المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وغيرها ٠

ومن الفروع الأصلية : الأمانة العامة

ولقد أنشئت فى الأمانة العامة مكاتب وأجهزة وإدارات على النحو التالى : (١ – مكاتب وأجهزة خاصة مثل مكتب مقاطعة إسرائيل ومكتب مكافحة المخدرات وبيوت الطلبة ومعهد الدراسات العربية العالية.٢ – إدارة الاستعلام والنشر ٠ ٣ – إدارة المواصلات. ٤ – الإدارة الثقافية ٠ ٥ – إدارة الشئون الاجتماعية

٦ – إدارة شئون البترول ٠ ٧ – الإدارة القانونية ٠ ٨ – إدارة السكرتارية ٩ – إدارة فلسطين ٠

وعلى كل إدارة العمل على متابعة ما بشأنه خاص بها ويتبعها كتخصص فى مكونات الجامعة العربية والذى من شأنه الارتباط بالعلاقات الدولية وضمان أمن وسلامة الأوطان العربية ، فقد أبرمت الجامعة معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى لدول الجامعة والتى وقعت فى عام ١٩٥٠ ودخلت فى دور التنفيذ فى عام ١٩٥٢ وتم تعديلها فى عام ١٩٥٩

وفى ديسمبر عام ١٩٦٣ اقترح عبدالناصر عقد اجتماع للقمة يحضره ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية للتدارس فى التهديدات الصهيونية واتخاذ موقف موحد حيالها ، ولقد عقد مؤتمر أول فى يناير ١٩٦٤ فى القاهرة ومؤتمر ثان فى سبتمبر ١٩٦٤ فى الإسكندرية ومؤتمر ثالث فى الرباط عام ١٩٦٥ وقد أطلق على هذا الجهاز الجديد " مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية " وقد اهتم بالعديد من الموضوعات مثل :

قرر هذا المجلس تأليف مجلس عربى مشترك للبحوث الذرية ، كما اهتم بوضع خطة للعمل العربى المشترك لتحرير فلسطين ، كما أيد المجلس تحرير الجنوب المحتل وعمان ودعم العلاقات بإمارات الخليج العربى

والتعاون الاقتصادى العربى وبتوثيق الصلات الاقتصادية مع المغرب العربى ، كما اهتم بالمشكلات العالمية مثل تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية .

اما ابرز نشاطات الجامعة فقد ساعدت على نيل كل من سوريا ولبنان استقلالهما عام ١٩٤٦ ونجحت في ابرام معاهدة جديدة بين بريطانيا ومصر عام ١٩٥٤ تضمنت الاستقلال وجلاء القوات البريطانية كما اخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن ليبيا ونيل استقلالها عام ١٩٥١ كما هو الحال في السودان، كما نجحت الجامعة بتسوية الخلافات الداخلية التي نشبت في اليمن في الاعوام ١٩٤٨ و١٩٥٤ كما كان لها دورا في استقلال دول المغرب العربي كافة، وفي المجال الاقتصادي سعت الجامعة العربية الى عقد اتفاقيات التعاون الاقتصادي عام ١٩٥٠ واتفاقية التبادل التجاري وتنظيم الترانسيت عام ١٩٥٣ كما نشطت الجامعة في قيام الحوار العربي- الاوربي والتعاون العربي- الافريقي. اما عن تقويم الجامعة فهناك اجماع بين الدارسين بان الجامعة قد وفقت في التصدي للمشكلات الاساسية التي واجهت الوطن العربي وخاصة مشكلة فلسطين وغيرها من المشاكل العربية المعروفة اذ ان الجامعة لاتشكل الطموح العربي فعلى هذه الجامعة التوحد والتضامن لمواجهة الاخطار والتحديات الداخلية والخارجية خاصة الاستعمار

الصهيونى فى فلسطين وتعديل ميثاق الجامعة بما يتلائم وظروف المرحلة الراهنة. ليس هذا فحسب ، فالجامعة العربية التى تعتبر رمز الوحدة العربية والتى أنشئت قبل الأمم المتحدة وقبل الاتحاد الأوربى وقبل كثير من المنظمات الإقليمية الأخرى ، نجد أنها تراجعت عن دورها الذى أنشئت من أجله " توحيد العرب " بخلاف المنظمات الأخرى التى تسعى دائما لتحقيق الدور الذى أنشئت من أجله ، وأصبح دور الجامعة مهمشا لا يعدو الاحتجاج والشجب بالنسبة للأحداث التى تقع ضد الدول الأعضاء فيها أو السعى لتحقيق أهدافها بعد فوات الأوان.

**ثانياً : حلف بغداد :**

عمل الاستعمار البريطانى لتحقيق سيطرته على المشرق العربى على إقامة ما أسمى بسوريا الكبرى ، مستعمرة جديدة تضم العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين تحكمها الأسرة الهاشمية تحت السيطرة البريطانية

وكانت بريطانيا تتوقع أن نجاح هذا المشروع سينتهى إلى إخضاع العربية السعودية واليمن ثم تركيا وإيران واليونان إلى النفوذ البريطانى ، كما يدعم قبضة بريطانيا على مصر ، وكان أن رفضت معظم الشعوب العربية مشروع سوريا الكبرى. لذا رأت بريطانيا مرة أخرى فى عام ١٩٥٥ أن تبدأ المشروع كله من جديد تحت اسم حلف بغداد ، فى شكل كتلة عسكرية لدول

الشرق الأوسط ، تكون فرعاً لحلف الأطلنطى وتحت سيطرة بريطانيا ٠٠ أى نفس الأهداف ٠٠ أى أهداف إمبراطورية زيت بريطانية ، وقواعد عسكرية بريطانية ، وسجن استعمارى حديدى لعشرات الملايين من العرب والإيرانيين

ميلاد الحلف :

كان أهم ما واجه البلاد فى ذلك الوقت انقسام الرأى بشأن تأمين الدفاع عن الشرق الأوسط ، فكانت فكرة القومية التى نادت بها مصر أن تعتمد الشعوب العربية على نفسها وألا تنحاز إلى إحدى الكتلتين المتنافستين الغربيةوالشرقية وكانت هناك فكرة روج لها رئيس وزراء العراق نورى السعيد وبعض الأحزاب فى سوريا وهى أنه ما دامت الدول الغربية توالى تزويد الدول العربية بالسلاح والذخيرة فإن من مصلحة هذه الدول أن تصادق الغرب ٠

وبالفعل بدأ العراق ينفذ خطة فتم تبادل الزيارات بينه وبين تركيا ، فزار عدنان مندريس رئيس وزراء تركيا بغداد وبيروت فى يناير ١٩٥٥ ومر على دمشق ، وكادت زيارته لمصر أن تتم لو لم ينتبه جمال عبدالناصر إلى الخطة التى كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تبيتانها لربط هذه المنطقة من جديد بعجلة المعسكر الغربى فتتعرض بذلك لغضب الكتلة الشرقية ، ويؤثر ذلك على استقلالها السياسى ٠

لذلك ألغى عبدالناصر المقابلة التى كان قد حدد موعدها مع الرئيس التركى ، ودعت جامعة الدول العربية إلى عقد اجتماع فى القاهرة للبحث

فيما قد يترتب على اتفاق مع تركيا من نتائج وخيبة أمل لفكرة الجامعة العربية ، فاجتمع بالقاهرة رؤساء وزراء سوريا ولبنان والسعودية وليبيا والأردن ومندوب عن اليمن ، وبطبيعة الحال لم يحضر نورى السعيد ٠

أقر العراق ميثاقه مع تركيا فى ٢٤ فبراير ١٩٥٥ ، وكان هذا نواة لميلاد " حلف بغداد " الذى انضمت إليه بريطانيا ثم باكستان وإيران وساندته الولايات المتحدة ، وبذلك يكون نورى السعيد قد دق أسفيناً فى صميم جامعة الدول العربية وتصدع البناء العربى ٠

**حلف عام بغداد عام ١٩٥٥ :**

عقد نورى السعيد فى فبراير ١٩٥٥ معاهدته الدفاعية مع تركيا فى أنقرة وأصبحت تعرف " بميثاق بغداد " وكان الغرض الأساسى منها إنشاء " حزام عسكرى " فى الشرق الأوسط يحول دون العدوان الشيوعى فى المنطقة ، كما أسسوا حلف شمال الأطلنطى فى الغرب وحلف جنوب شرقى آسيا ، وقد انضمت بريطانيا إلى الحلف فى أبريل ١٩٥٥وتلتها باكستان فى سبتمبر ثم إيران من نفس العام ، رغم احتجاج الاتحاد السوفيتى ٠

وأهم ما جاء فى ميثاق حلف بغداد ما نصت عليه المادة الخامسة من أن الباب مفتوح للانضمام إلى الميثاق أمام دول الجامعة العربية أو أية دولة أخرى تهتم باستتباب الأمن والسلام فى المنطقة ، ويكون الطرفان المتعاقدان معترفين بها ، وهذا يعنى رغبة العراق فى إقصاء إسرائيل عن نطاق المعاهدة ، لأن العراق لم يعترف بإسرائيل ٠

ونصت المادة السادسة على تأليف مجلس دائم للحلف على مستوى الوزراء على أن يبدأ عمله بمجرد انضمام أربع دول للحلف ، ومع ذلك فإن نورى السعيد قد أخل بالمادة العاشرة من معاهدة " الدفاع المشترك والتعاونالاقتصادى " التى وافق عليها العراق ، فقد نصت هذه المادة على " أن تتعهد الدول المتعاقدة بألا تعقد اتفاقات دولية تتعارض وتناقض مقررات هذه المعاهدة أو تقوم بعمل فى المجال الدولى يتنافى وأغراض هذه المعاهدة " هذا وقد أصبحت بغداد المركز الدائم للحلف ومقر سكرتاريته ومكان انعقاد لجانه سواء كانت اقتصادية أو حربية أو ثقافية أو علمية أو سياسية .

ويذكر د. عبدالعليم عبدالوهاب : " ان عدم انضمام الولايات المتحدة للحلف لأن الصهاينة رأوا فيه خطراً (إسلامياً وعسكرياً عليهم ) ثم استمرار الرغبة الأمريكية فى عدم تحطيم الجسور بينها وبين مصر " ، وحين أعلنت بريطانيا انضمامها إلى الحلف أثبتت أنها لن ترتبط بما جاء فى الاتفاق بين تركيا والعراق من العمل على بذل المساعى لحل مشكلة فلسطين على أساس تنفيذ قرارات الأمم المتحدة ( كيف وهى التى أتت بهؤلاء ؟ ) ، لكن نورى السعيد أراد من هذا النص أن يتستر على ما اقترفه ضد التضامن العربى ، وأن يتظاهر أمام الرأى العام العربى بأنه حين أبرم معاهدة حلف بغداد كان يفكر أيضاً فى مصالح العربوتحرير فلسطين من الصهاينة .

وقد رأت بريطانيا أنه بانضمامها للعراق فى هذا الحلف قد أصبحت معاهدة ١٩٣٠ غير ذات موضوع ، لذلك سارعت بعقد معاهدة أخرى جديدة

فى أبريل ١٩٥٥ نص فيها على إنهاء معاهدة ١٩٣٠ وبالتالى فالقواعد الجوية التى كانت لبريطانيا فى العراق تصبح تحت إشراف الضباط العراقيين وتحتفظ بريطانيا بصيانة القواعد وتدريب الضباط العراقيين وجميع المزايا التى كانت لها بمقتضى معاهدة ١٩٣٠ .

ولاقى حلف بغداد معارضة شديدة فى داخل العراق وفى العالم العربى كله ، ففى مارس ١٩٥٥ وقعت مصر وسوريا ميثاقاً للتعاون العسكرى والسياسى والاجتماعى ، مثل مصر صلاح سالم وسوريا خالد العظم ، وانتقل الاثنان إلى الأردن ثم السعودية لعرض نتيجة الاتفاق المشترك بين مصر وسوريا والذى نص على :

عدم الانضمام إلى الحلف التركى العراقى .

إقامة منظمة دفاع وتعاون اقتصادى عربى مشترك .

إنشاء قيادة مشتركة دائمة لها مقر رئيسى وتشرف على تدريب القوات العسكرية تضعها كل دولة تحت تصرفها .

الاتصال بالحكومات العربية لعقد مؤتمر من الدول المدافعة .

وفى واحة البوريمى التى كانت تحت السيطرة البريطانية صدر بيان سعودى سورى مصرى بالموافقة على ما ورد بالبيان المصرى السورى ، وانضمت اليمن وأعلن الإمام أحمد أنه مع الدول الثلاث " مصر وسوريا والسعودية " .

وقد جاء رفض عبدالناصر لحلف بغداد منبعثاً من ضمير الشعب الذى قوم مؤامرة الدفاع المشترك بين صدقى وبيفن فى عام ١٩٤٩ ، كما رفض منظمة دفاع الشرق الأوسط الذى قدمته أمريكا وانجلترا وفرنسا وتركيا فى عام ١٩٥١ ، أيضاً أخفق المشروع البريطانى الذى تقدمت به بريطانيا فى أغسطس ١٩٥٢ والذى أسمته تعون القوات العسكرية فى الشرق ، وفى عام ١٩٥٣ تقدمت الولايات المتحدة بمشروع قيادة موحد ، ولكن أخفق أيضاً هذه المشروع ٠

لقد كانت هذه الأحلاف كما صورها عبدالناصر " أحلاف الذئب والحمل ، ولا بد أن يأكل الذئب الحمل " ٠

لذلك لم يكن عجيباً أن يستجيب أهل الفكر فى العراق وفى غيره من أرجاء العالم العربى لسياسة عبدالناصر الداعية إلى الحيدة وعدم الانحياز والعمل على التحرر من التدخل الأجنبى ، وازدادت ثقة الشعب العربى تعلقاً بمبادئ عبدالناصر التى عوضتهم عن عقدة النقص التى استولت عليهم عقب هزيمتهم فى فلسطين ٠

لقد ثبتت صحة نظر الشعب المصرى وحكومة عبدالناصر بالنسبة لحلف بغداد ، فقد كانت تركيا تقوم بالدعاية ضد مصر فى أثناء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، كما استخدمت القواعد التركية لإخفاء بعض سفن العدو بينما كانت مصر تركز رقابتها على قبرص ، كما استخدمت إحدى

القواعد الجوية فى العراق لإمداد الطائرات المعتدية بالوقود ونقل الجرحى ، كم استخدم الأعداء المستشفيات العراقية .

واصل نورى السعيد سياسته ضد مصر وجامعة الدول العربية فامتنع عن تسديد اشتراكات العراق فى ميزانية الجامعة وعمل على دق أسفين بين مصر والسعودية مستغلاً فى ذلك ما تعرض له انتاج البترول من عطل على أثر العدوان الثلاثى على مصر مما أدى إلى توتر العلاقات بين مصر والسعودية ، ثم جعل نورى يؤلب الأردن ولبنان على مصر .

لم تكتف مصر بالرفض لحلف بغداد ، وإنما شنت حملة سياسية على هذا الحلف ، وأصبح لمصر استراتيجية سياسية واضحة خاصة بها منذ أن تألف حلف بغداد ، فعملت مصر على عزل العراق عن الدول العربية حتى يعود إلى شقيقاته العربية الأخرى ، ونجحت مصر حتى تكون محور دمشق – عمان – الرياض – القاهرة .

أصبح واضحاً مع نهاية ١٩٥٥ أن الاستعمار فقد قدرته على دعم أحلافه العسكرية فى الوطن العربى ، وأعلن عبدالناصر فى أول يونيو ١٩٥٦ تأكيداً لمبدأ الحياد الإيجابى بقوله : " أن سياسة مصر لا شرقية ولا غربية بل مصرية صميمة تعمل لمصر وللوطن العربى الأكبر " .

**ثالثاً: <u>الوحدة بين مصر وسوريا ١٩٥٨ :</u>**

فى عام ١٩٥٥ وافقت السعودية على الانضمام إلى مصر وسوريا فى قيادة عسكرية مشتركة كانت موجهة بشكل واضح ضد حلف بغداد ، وفى ١٩٥٧ وافق الملك سعود أيضا على ضرورة أن تقدم السعودية العون لمصر وسوريا لكى تقوما بتقديم المساعدات المالية للأردن بدلا من بريطانيا ، ونظرا لأن حزب البعث كان يواجه ضغوطا أمريكية قاسية ولكنه يواجه فى نفس الوقت احتمال اقتسام السلطة مع الشيوعيين أو احتمال قيام الشيوعيين بالاستيلاء على السلطة نهائيا فإنه رأى أن أفضل وسيلة هى إنشاء وحدة بين مصر وسوريا تضمن توفير الحماية لسوريا من خلال عبدالناصر ٠

أما التقارب السورى من مصر فقد كان ذلك عندما وقع الهجوم العسكرى ضد مصر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ حينما بادرت سوريا إلى تدمير أنابيب البترول التى تمتد من العراق إلى لبنان ، عبر سوريا ، ولذلك كان طبيعيا أن يقرر عبدالناصر إرسال قوات مسلحة مصرية إلى سوريا فى أكتوبر ١٩٥٧ عندما حشدت تركيا جيشها على الحدود السورية وتهدد سلامتها ، وكانت تحركات الأسطول الأمريكى السادس تقترب من الشواطئ اللبنانية والسورية ، وعربد بعض الشيوعيين فى سوريا تهديداً للدولة من الداخل ، فانهارت

الدولة فبحثت عن الوحدة وقد وجدت فى عبدالناصر المنقذ لهذه الدولة فى وحدتها مع مصر ، وفى نفس الشهر" أكتوبر" قرر مجلس نواب سوريا توجيه الدعوة إلى مجلس الأمة المصرى لزيارة سوريا ، حيث أرسل مجلس النواب السورى برقية إلى مجلس الأمة المصرى ، أشاد فيها بموقف مجلس الأمة المصرى الخاص بتأييد سوريا فى سياستها القومية العربية ، واستنكار المؤامرات التى تهدف إلى القضاء على استقلالها ، كما أشاد بموقف الشعب المصرى وقادته فى مساندة سوريا ، وقد استجاب مجلس الأمة إلى هذه الدعوة وقام وفد برلمانى مصرى يضم أربعين عضوا من مجلس الأمة برئاسة أنور السادات وكيل المجلس فى ذلك الوقت بزيارة سوريا فى نوفمبر واستقبل هناك استقبالا وطنيا جارفا ، وفى اليوم التالى لوصوله تناوب " أكرم الحورانى " رئيس مجلس النواب السورى ، والسادات وكيل مجلس الأمة المصرى – تناوبا رئاسة الجلسة الخاصة التى عقدها المجلس السورى ، وأعدا قرارا بالاتحاد الفيدرالى بين مصر وسوريا فى جلسة سرية عقدتها لجنة الشئون الخارجية بالمجلس النيابى السورى ولجنة الشئون العربية بمجلس الأمة المصرى قبل عقد الجلسة العلنية للمجلس ، ولما عقدت الجلسة وافق النواب بالإجماع على القرار ، ودعا مجلس الأمة النائبين

السوريين ( معروف الدواليبى وعلى بوظو ) إلى مشاركة نواب مجلس الأمة المصرى فى اجتماعهم التالى ، وألقى الدواليبى كلمة أشاد فيها بهذا الموقف التاريخى ودور مصر وسوريا فى التصدى للعدوان الذى يستهدف الأمة العربية وأشار فيها إلى أن سوريا تعلن وحدتها مع مصر حتى يعيد التاريخ سيرته الأولى أيام صلاح الدين الأيوبى ، كما وافق مجلس الأمة المصرى على القرار المشترك بجلسة ١٨ نوفمبر أيضا ، وحضر وفد مجلس نواب سوريا جلسة مجلس الأمة مساء ٣١ ديسمبر واشتركوا فى جلسة المجلس وطالبوا بالوحدة بين البلدين ٠

كان عبدالناصر قبل إتمام الوحدة مع سوريا حذرا من التورط فى شكل من الوحدة لم تنضج ظروفه الموضوعية فاعترض على الوحدة الفورية بين البلدين وفضل عليها قيام اتحاد فيدرالى لمدة خمس سنوات على أن يعاد النظر فى أمر تلك الوحدة المقترحة بعد انتهاء تلك المدة ، وكان أغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين الذين عرض عليهم عبدالناصر الأمر ضد قيام الوحدة الاندماجية فورا ويفضلون عليها قيام اتحاد بين البلدين ، وقد وافق مجلس النواب السورى بالإجماع على الاتحاد الفيدرالى مع مصر ، وكان حزب البعث الاشتراكى السورى يرى أن يكون الاتحاد فيدراليا ، ولكن

عبدالناصر تحول موقفه إلى الوحدة الشاملة وليس الاتحاد الفيدرالى حتى تتجمع كل خيوط الدولة الجديدة فى يده وتحت قيادته ، ويرجع هذا التحول إلى الأسباب الآتية :

١- التيار الشعبى الشديد المؤيد للوحدة مع سوريا .

٢- إجماع العسكريين السوريين على الوحدة وقبولهم قيادة جمال عبدالناصر .

٣- الخوف من انتشار الشيوعية فى سوريا ومصر .

٤- الطموح إلى ظهور أول تحقيق عملى للقومية العربية .

وأكد ذلك عبداللطيف البغدادى فى قوله : " اضطررنا للاستجابة تفاديا لنفوذ الشيوعيين المتزايد فى سوريا " ، وقد اشترط عبدالناصر على السوريين لقبول الوحدة حل الأحزاب وابتعاد ضباط الجيش عن الاشتغال بالسياسة .

الجدير بالذكر أنه عندما قدم الضباط من سوريا إلى القاهرة يعرضون الوحدة ، لم يجدوا الجمهورية المصرية بل وجدوا قاعدة النضال العربى ، ولم يقابلوا رئيس الجمهورية المصرية بل قابلوا قائدا عربيا ، ولم يدر الحديث حول كيفية إلغاء الدستورين الإقليميين ، بل دار حول كيفية البناء

الدستورى لدولة الوحدة ، لقد تم كل شئ فى غيبة أى ولاء إقليمى وخارج نطاق النظام القانونى فى الإقليمين ، لذا بهر السوريون بما رأوا وأصروا على الوحدة ٠

عبر القطران السورى والمصرى عن إرادتهما فى الوحدة الكاملة فى شتى المناسبات ، ثم اتفقوا على الخطوط العريضة للدولة الموحدة كالتالى :

١ – دستور واحد يعلن إنشاء الجمهورية العربية المتحدة ويرسم نظام الحكم فيها ويفسح المجال لانضمام الشعوب العربية التى ستتحرر بعد ذلك ٠

- رئيس واحد لدولة واحدة ٠ سلطة تشريعية واحدة ٠
- سلطة تنفيذية واحدة ٠ سلطة قضائية واحدة ٠
- علم واحد وعاصمة واحدة للدول العربية الداخلة فى دولة الوحدة٧٠
- تشرع القوانين المنظمة لحقوق المواطنين وواجباتهم فى الدولة الجديدة استنادا إلى هذا الدستور الواحد

أما فيما يتعلق بالوحدة العسكرية فقد نصت المذكرة على أن تقوم هذه الوحدة على الأسس الآتية : ١–يكون رئيس الدولة قائدا عاما للقوات المسلحة ٠ ٢–قيام مجلس دفاع أعلى ٠ ٣–تكوين قيادة عامة للقوات المسلحة ٠ ٤–تكون القوات المسلحة من برية وجوية وبحرية موحدة

التنظيم والتسليح والتدريب والتجهيز وتوزع حسب متطلبات الدفاع والخطط الدفاعية المقررة على مسارح العمليات فى أراضى الدولة الاتحادية ٠ ٥- موازنة عامة للقيادة العامة للجيش ، من أجل ذلك فإن الشعب يمنح قواته المسلحة ما يجعلها دائما فى وضع الاستعداد وفى مكان القوة ٠٠ إن القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة يجب أن تملك تفوقا حاسما فى البر والبحر والجو ، قادرة على الحركة السريعة فى إطار المنطقة العربية التى تقع مسئولية سلامتها فى الدرجة الأولى على القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة ، كذلك فإن هذه القوات لابد لها فى تسليحها أن تساير التقدم العلمى الحديث وأن تملك من الأسلحة الرادعة ما يكبح جماح القوى الطامعة ويقدر على هزيمتها إذا ما تحركت بالعدوان ٠

فى ٢ فبراير ١٩٥٨ أعلن الرئيسان المصرى والسورى بيانا مشتركا عن الاندماج الكامل للدولتين تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة ، وفى ٨ مارس أرغم الملك سعود على التخلى عن سلطاته لصالح أخيه فيصل بعد أن كشف السوريون عن تفاصيل مؤامرة دبرها الملك سعود أو أحد مستشاريه لاغتيال عبدالناصر بهدف منع إقامة الوحدة بين مصر وسوريا ، وكان فيصل يعتبر أقل موالاة للغرب وأكثر موالاة للمصريين من أخيه سعود

وقد أشار عبدالناصر فيما بعد إلى أنه عندما جاء الزعماء السوريون إلى القاهرة ليطلبوا الوحدة مع مصر فأنه شعر بأنه من الأفضل البدء باتحاد فيدرالى متمتع بحرية الحركة على مدى فترة انتقالية ، وعندما أصروا على الوحدة الكاملة فإنه أشار إلى أنه إذا كان سيتحمل المسئولية فإنه ينبغى أن تحكم الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة ، ولم يكن عبدالناصر على استعداد للسماح لحزب البعث السورى أن يحكم سوريا تحت مظلة نفوذ وهيبة عبدالناصر ، ولذلك فإن عبدالناصر سارع إلى إهمال هؤلاء الزعماء البعثيين وإزاحتهم ٠ بل أنه احتفظ لنفسه بمعظم السلطات التنفيذية والتشريعية ، كما أن الدستور البرلمانى لفترة ما بعد الاستقلال قد حل محله تنظيم سياسى وحيد وفقا للنموذج المصرى ٠

من الواضح أن الحكومة السورية وضعت فى مأزق حرج وخطير فكان عليهم أن يتخذوا قرارهم فى عجالة ، وانقسم السياسيون إلى قسمين :

الأول : منهم المنتظر فى مصر مع عبدالناصر والموافق على قيام الوحدة برغبته ٠

والآخر : فى سوريا والذى وافق استسلاما للأمر الواقع وعلى رأسهم شكرى القوتلى نفسه الذى دعا إلى اجتماع محدود ضم بعض المدنيين والعسكريين

وناقشوا الأمر ، ثم قرروا إيفاد صلاح البيطار إلى القاهرة فى ١٦ يناير للتعرف على رأى عبدالناصر بعد إبلاغه أن حزب البعث يرى إقامة اتحاد فيدرالى بينما يرى القوتلى قيام وحدة اندماجية .

وأثناء اجتماع مجلس الأمة المصرى للاحتفال بذكرى إصدار دستور ٥٦ وصل صلاح البيطار وعند دخول عبدالناصر تحول المجلس إلى مظاهرة تطالب بإتمام الوحدة ، ثم تكلم البيطار قائلا : " لقد جئت ممثلا للحكومة السورية أحمل طلبا رسميا منها بإقامة دولة الوحدة ، وأمام هذا الإصرار السورى أوضح عبدالناصر رأيه وبين شروطه علانية ومن الواضح أنه وجد الطريق مهيأ لقبولها حيث ذكر أن له ثلاثة شروط ، هى :

١- أن يجرى استفتاء شعبى على الوحدة بين مصر وسوريا .

٢- أن يتوقف النشاط الحزبى فى سوريا وأن تقوم كل الأحزاب السورية بحل نفسها .

٣- أن يتوقف تدخل الجيش فى السياسة ، ثم قام عبدالناصر فى ٦ مارس بدمشق بأصدار قرارا جمهوريا بتعيين أربعة نواب لرئيس الجمهوري ، نائبين سوريين لرئيس الجمهورية العربية المتحدة هما : أكرم الحورانى وصبرى العسلى ونائبين مصريين هما : عبداللطيف البغدادى وعبدالحكيم

عامر علاوة على تعيين ٣٤ وزيرا للجمهورية منهم ٢٠ وزيرا من الإقليم الجنوبى ( مصر ) و١٤ وزيرا من الإقليم الشمالى ( سوريا ) ٠

وفى هذا المجال ذكر عبدالناصر فى خطابه بمناسبة عيد الوحدة ٢١ فبراير ١٩٦٣ : " الشعب كان على استعداد أن يقاتل ويناضل من أجل وضع الوحدة موضع التنفيذ ، ولكن التناقض الاجتماعى ديكتاتورية رأس المال ديكتاتورية الإقطاع ، التى كانت تتحكم فى هذه الأيام ٠٠ هناك فى سوريا والتى كانت لها قوى قبل الوحدة استمرت بعد ١٩٥٨ " ، وقال : " واجهنا فى ١٩٥٨ ٠٠ واجهنا البحث من أجل الوحدة العربية ٠٠ أنا قلت سنة ١٩٥٨ أننا نحن فى حاجة إلى خمس سنوات ، حتى نرسى الوحدة على مراحل ٠٠ وعلى أساس سليم ٠٠ ولكن الشعب العربى فى مصر ، والشعب العربى فى سوريا ، فرض الوحدة فرضا فى هذا الوقت " ٠

<u>إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة أول فبراير ١٩٥٨</u>

حضر عبدالناصر جلسة مجلس الأمة يوم ٥ فبراير ١٩٥٨ ، وألقى خطبة مستفيضة فى تاريخ الوحدة والكفاح ، قال فيها : " لقد انتهت محادثاتنا إلى إعلان الوحدة رسميا وتوقيع الإعلان فى يوم السبت الأول من فبراير ٥٨ ، وقد أودع هذا الإعلان التاريخى فى مكتب مجلسكم ، وكانت

النتيجة الكبرى له هى توحيد مصر وسوريا فى دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة يكون نظام الحكم فيها ديمقراطيا رياسيا ، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة ، يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسئولين أمامه ، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد ، ويكون لها علم واحدٍ ظِل شعبا واحدا ، فى وحدة يتساوى فيها أبناؤها فى الحقوق والواجبات ثم كان اتفاقنا بعد ذلك على المبادئ الدستورية لتقوم عليها الجمهورية فى فترة الانتقال ٠

وقد أجرى استفتاء على الوحدة وعلى رئيس الجمهورية العربية المتحدة يوم ٢١ فبراير وتم انتخاب عبدالناصر ليكون أول رئيس للجمهورية العربية المتحدة وكانت نتيجة الاستفتاء بما يشبه الإجماع ، وبناء عليه صدر هذا الدستور وعبدالناصر بدمشق ، وأدى صلاة الجمعة فى المسجد الأموى ، وزار قبر صلاح الدين الأيوبى ، وقد شعر العرب بعودة عزتهم إليهم ٠

<u>انضمام اليمن للجمهورية العربية المتحدة :</u>

بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ، أرسل الإمام أحمد حميد الدين إمام اليمن إلى عبدالناصر ببرقية ، يطلب منه فيها انضمام اليمن للجمهورية العربية المتحدة ، ويخبره بأن ابنه محمد البدر فى طريقه إلى

مصر ، لبحث الأمر مع عبدالناصر ، وكان القوتلى يرى ضرورة قبول عرض الإمام أحمد حميد الدين ، لأنها قد تخفف من الضغط على العناصر الوطنية فى اليمن ، وأنه يجب الموافقة على العرض لأن ذلك يعد خطوة وحدوية يجب عدم التردد فيها ، وحتى لا يلجأ الإمام إلى الانضمام إلى السعودية ٠

دارت مفاوضات بين البدر وعبدالناصر والمسئولين فى دولة الوحدة فى القاهرة ، انتهت بمشروع للاتحاد عرضه البدر على والده فى السابع عشر من فبراير ١٩٥٨ ، ثم عاد إلى القاهرة ومعه توكيل من والده بتوقيع الاتفاق ، الذى تم فى الثامن من مارس ، ومن ضمن ما نص عليه الاتفاق :

١- ينشأ اتحاد يسمى ( الدول العربية المتحدة ) ، يتكون من ج ٠ ع ٠ م ٠ والمملكة اليمنية والدول العربية التى تقبل الانضمام إلى هذا الاتحاد ٠

٢- تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية وبنظام الحكم الخاص فيها ٠

٣- تتبع الدول الأعضاء السياسة الخارجية الموحدة التى يضمها الاتحاد

٤- يكون للاتحاد قوات مسلحة موحدة ٠

٥- يلغى التمثيل السياسى بين الدول الأعضاء ٠

ولأن الشعب اليمنى لم تسبق له معرفة الاستفتاء أو الانتخاب ، فقد تم انضمام اليمن لدولة الوحدة دون استفتاء ، كما كان الإمام يهدف بهذا

الانضمام إلى تقوية مركزه داخلياً ، لأنه انضمام إلى أكبر دولة عربية ذات نفوذ وشعبية فى العالم العربى. ولما تضاعفت حالات التأميم فى مصر عقب الانفصال عن سوريا دخل عبدالناصر فى مواجهة بعض الدول العربية فقطع العلاقات الدبلوماسية مع الأردن ، وندد بنظام الحكم السعودى ورفض الاعتراف بنظام الحكم السورى الجديد ، وحطم الاتحاد الكونفدرالى مع اليمن ، ففى شهر سبتمبر ١٩٦٢ تم إعلان قيام الجمهورية فى اليمن واعترف بها كل من الجمهورية العربية المتحدة ( مصر) والاتحاد السوفيتى غير أن الملكيين عادوا إلى التجمع خلف الإمام البدر الذى تسانده السعودية ، وأرسل عبدالناصر قوات مصرية لنجدة الثورة اليمنية .

# الدول العربية

| | |
|---|---|
| **جزيرة العرب**<br>١- المملكة العربية السعودية.<br>٢- الجمهورية اليمنية.<br>٣- الإمارات العربية المتحدة.<br>٤- دولة الكويت.<br>٥- دولة قطر.<br>٦- سلطنة عُمان.<br>٧- البحرين. | **شمال أفريقيا والمغرب العربي:**<br>١- جمهورية مصر العربية.<br>٢- المملكة المغربية.<br>٣- الجمهورية التونسية.<br>٤- الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية.<br>٥- دولة ليبيا.<br>٦- جمهورية السودان.<br>٧- موريتانيا. |
| **الهلال الخصيب:**<br>١- الجمهورية العربية السورية.<br>٢- جمهورية العراق.<br>٣- دولة فلسطين.<br>٤- الجمهورية اللبنانية.<br>٥- المملكة الأردنية الهاشمية. | **القرن الأفريقي:**<br>١- الصومال.<br>٢- جيبوتي.<br>٣- جزر القمر. |

# عواصم الدول العربية

## عواصم الدول العربيّة في قارة أفريقيا

| | | | |
|---|---|---|---|
| مصر | القاهرة | ليبيا | طرابلس |
| السودان | الخرطوم | الجزائر | الجزائر |
| المغرب | الرباط | موريتانيا | نواكشوط |
| تونس | تونس | الصومال | مقديشو |
| جيبوتي | جيبوتي | جزر القمر | موروني. |

## عواصم الدول العربيّة في قارة آسيا

| | | | |
|---|---|---|---|
| سوريا | دمشق | فلسطين | القدس |
| لبنان | بيروت | العراق | بغداد |
| الكويت | الكويت | الأردن | عمَّان |
| قطر | الدوحة | الإمارات | أبو ظبي |
| البحرين | المنامة | عُمان | مسقط |
| اليمن | صنعاء | السعودية | الرياض |

# قائمة المصادر والمراجع

**الوثائق المنشورة:**

- وثائق باللغة العربية: دساتير العالم.

**المراجع العربية:**

- – د. عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانيةدولة مفترى عليها ، ج ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٨٦٤ ، ٨٦٥ .
- ٢- د. رأفت غنيمى الشيخ : دراسات أفريقية فى التاريخ الحديث والمعاصر ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، مصر ، ٢٠١١ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٦ .
- ٣- د. شوقى عطاالله الجمل : دور مصر فى أفريقيا فى العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
- ٤- عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة – دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة ، مطابع انترناشيونال برس ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٩٣ .

- ٥- د. صلاح أحمد هريدى : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٩ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٤ .
- ٦- د. جلال يحيى : فجر التاريخ الحديث ، دار الكتب الجامعية ،١٩٧٦، ص ٤٣٣ .
- ٧- بول كولز ، ترجمة ، د. عبدالرحمن عبدالله الشيخ : العثمانيون فى أوربا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ ص ٩٣ .
- ٨- د. عبدالعزيز نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٨ ، .
- ٩- د. جلال يحيى : المغرب الكبير – العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨ .
- ١٠- د. جلال يحيى : عصر النهضة والعالم الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
- ١١- د. رأفت غنيمى الشيخ : دراسات أفريقية فى التاريخ الحديث والمعاصر ، ص ٢٠٤ .

- ١٢- د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين : تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥ ٢٧ .
- ١٣- زهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، ط٢، دار النهضة العربية، ١٩٧٥، ص.٤١٤
- ١٤- شوقى عطا الله الجمل: المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب)، ط١، الانجلو المصرية، ١٩٧٧، ص.١٢٩
- ١٥- حسن سليمان محمود: ليبيا بين الماضى والحاضر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٩٢، ص ١٦٥.
- ١٦-رأفت الشيخ: فى تاريخ العرب الحديث، ط٤، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٣، ص.٨٦
- ١٧- أحمد الأنصارى: المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفخرانى، ص١٩٩.
- ١٨- روفيد خدورى: ليبيا الحديثة، ترجمة؛ نقولا زيادة، بيروت، ١٩٦٦، ص.١٧

- ١٩- الطاهر الزاوى: تاريخ طرابلس الغرب، القاهرة، ١٣٤٩هـ، ص.١٩٠
- ٢٠- شوقى الجمل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، القاهرة، ١٩٧٠، ص.٣٦٥،٣٤٥
- ٢١- محمد السروجى: العلاقات التونسية الفرنسية من الحماية إلى الإستقلال، ص.٧٢
- ٢٢- زاهر رياض: شمال أفريقيا فى العصر الحديث، ص.٢٢١
- ٢٣- محمود الشنقيطى:قضية ليبيا، القاهرة ، ١٩٥١، ص.٤٨
- ٢٤-عزيز سامح: الأتراك العثمانيين فى أفريقيا الخالية، القاهرة، ١٩٦٩، ص.٢٢١
- ٢٥- رأفت السيخ: أفريقيا فى العلاقات الدولية، القاهرة، ١٩٧٥، ص.١٧٤
- ٢٧- د. فؤاد طارق كاظم العميدي: تاريخ الدولة العثمانية، التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل ، العراق.

**الدوريات:**

- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- المؤرخ المصري.
- وقائع تاريخية